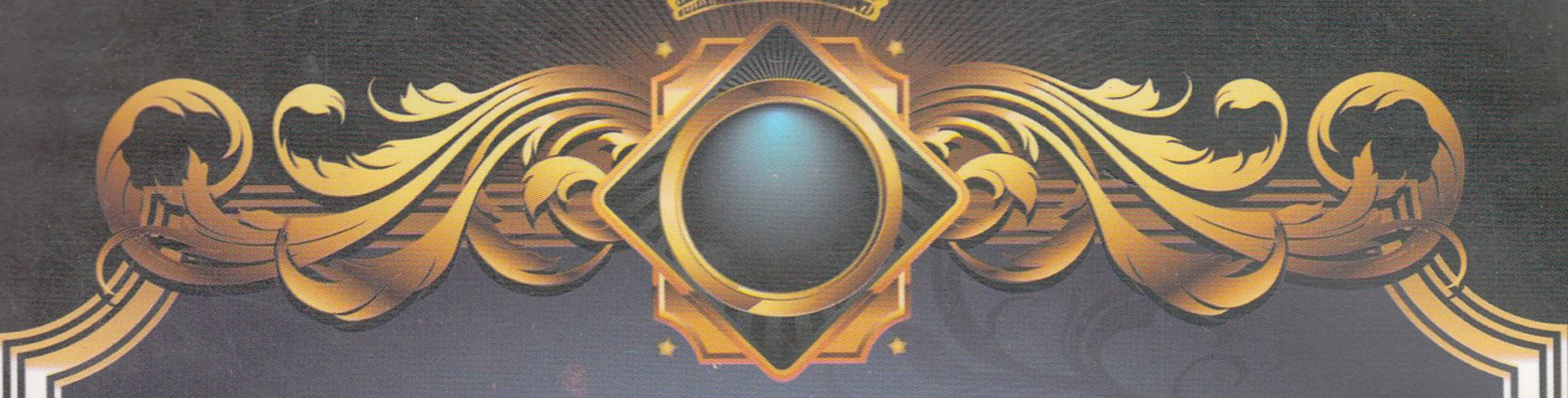


قضايا تاريخية

من عالم العصور الوسطى



تأليف

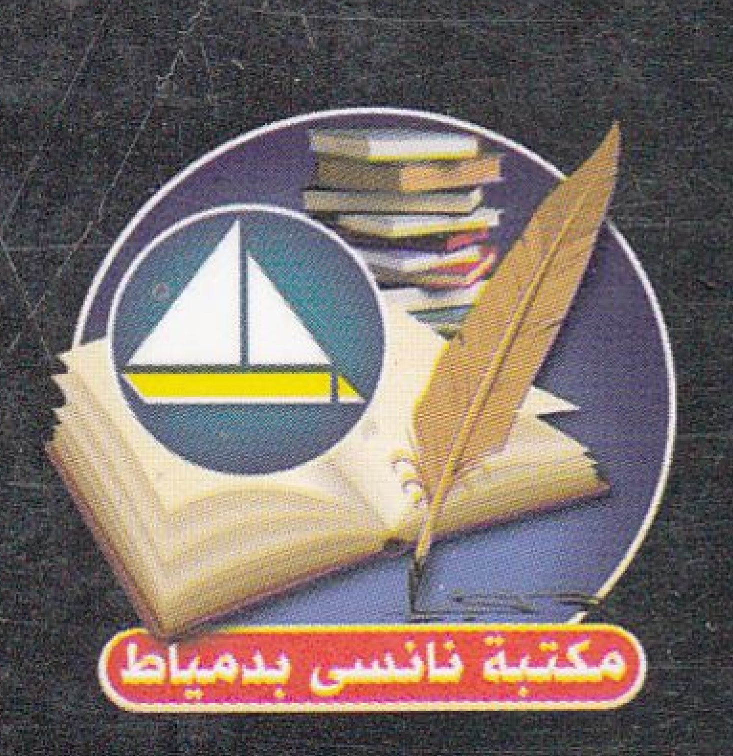
د / علاء طه رزق حسين

كلية الآداب - دمياط

جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م



قضايا تاريخية من عالم العصور الوسطى

تأليف

د. علاء طه رزق حسين
كلية الآداب - دمياط
جامعة المنصورة

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مكتبة نانسي دمياط

هاتف : ٢٤٠٨٥٥٣-٢ ٢٤٠٨٥٥٤-٢ ٣٢٣٣٦٩
فاكس : ٠٥٧/٤٠٣٧٥٥
محمول : ٠١٢٧٥١٠١٠٦- ٠١٠٤٢٠٢٤٥٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

حسين، علاء طه رزق.

قضايا تاريخية من عالم العصور الوسطى

/تأليف علاء طه رزق حسين

.-ط١.- دمياط: مكتبة نانسي، ٢٠١٠.

٢٠٤ص؛ ٢٤سم

تدمك : ٣ ٠٢٩ ٤٩٤ ٩٧٧ ٩٧٨

١- العصور الوسطى- تاريخ.

٢- العالم- تاريخ.

٩٠٩,٠٨

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢١١٦

إهـــداء

إلـــى

روح مواطن مصرى شريف اسمه كمال طه



مقدمة

لاشك أن عالم العصور الوسطى - تاريخاً وحضارة - يتسع لكثير من الأبحاث والدراسات لكثير من المتخصصين فى دراسة تلك الحقبة التاريخية الطويلة الممتدة من زمن اضمحلال الإمبراطورية الرومانية إلى زمن النهضة الأوربية أى من سنة ٣٠٠ - ١٥٠٠م تقريباً وهى حقبة تعادل ما يزيد عن ضعف الفترة الممتدة من عصر النهضة إلى عصرنا الحالى والتى اصطلح على تسميتها بتاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، وهى تسمية غير دقيقة إذا علمنا أن عالم العصور الوسطى كان يضم فى محيطه ثلاث دوائر متعددة الثقافات وهى الدائرة الأوربية ، والدائرة البيزنطية ثم الدائرة العربية الإسلامية .

وعلى الرغم من أن مجمل البحوث والدراسات فى مجال تاريخ العصور الوسطى يوحى بأن هذه الحقبة التاريخية الطويلة قد استوفت حظها من البحث والدراسة يشهد بذلك هذا الكم الهائل من المصادر والمراجع التاريخية والأدبية التى تزخر بها المكتبات الورقية والالكترونية فى الشرق والغرب سواء - فان الحقيقة تظل ثابتة فى أن كثيراً من هذه البحوث والدراسات - فى الجامعات العربية - تعاملت مع عالم العصور الوسطى من خلال الدائرة الأوربية باعتبارها المصدر الرئيس للكتابات التاريخية منذ أن خط الكاتب الإنجليزى إدوارد جيبون Edward Gibbon بيده الأحرف الأولى من كتابه الشهير اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية The Decline and Fall of the Romen Empire فى خريف سنة ١٧٦٤م ، وحتى قام الكاتب الأمريكى نورمان كانتور Norman Cantor بتأليف كتابه الموضوعى الشامل ؛ التاريخ الوسيط - قصة حضارة . البداية والنهاية Medieval History,The life and death of a Civilization

ولذا فإن هذا الكتاب يطرح فى فصوله الستة عدداً من القضايا التاريخية التى تلتقى فيها الدوائر الثلاث - الأوربية - البيزنطية - العربية الإسلامية وتتداخل مع بعضها البعض فى إطار عملية الصراع بين الغرب اللاتينى "الطامع" والشرق البيزنطى " المارق " والشرق الإسلامى " المُستباح" لتشكل فى النهاية عالماً مليئاً بالأحداث التاريخية اللامتناهية والانجازات الحضارية المبهرة التى تزخر بها المصادر العربية والأجنبية بشتى أنواعها التاريخية ، والأدبية والدينية ، والجغرافية ، والفلسفية .

وهذا الكتاب الذى يتكون من ستة فصول أو ست قضايا تتصل بعالم العصور الوسطى نستهلها فى الفصل الأول بقضية : " الصليب فى زمن قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) بين التوصيف الدينى والتوظيف السياسى ، وهى تتناول عملية التأصيل المعنوى والمادى للصليب فى العالم الإنسانى المسيحى فى الغرب الأوربى فى القرن الرابع الميلادى بعد أن فشل زعماء الكنيسة فى القضاء على صحوة الوثنية فتطلعوا إلى الأباطرة الرومان كى يساعدوهم على تحقيق هذا الهدف ويشدوا أزرهم فى الصعود بالكنيسة إلى الدرجات العلا ، وكان قسطنطين أول إمبراطور يعلن زواجه السياسى بالكنيسة اللاتينية حيث ولى وجهه شطر "الصليب" عسى أن يجد مبتغاه وما يطمع إليه من مكاسب سياسية وعسكرية .

أما الفصل الثانى ،فيتناول قضية: الفكر العقيدى للإمبراطور جوليان بين الشك واليقين - حيث أشاعت الكتابات الكنسية قصة ارتداده عن المسيحية التى نرى أنه لم يعتنقها أساساً كى يكون مرتداً ! وإنما هو ارتد فى حقيقة الأمر عن سياسة سلفه - قسطنطين - تجاه الكنيسة متأثراً فى ذلك بثقافته الكلاسيكية ورغبته فى إعادة وتجديد العبادات الأولى بنوع من الاجتهاد الفكرى الذى يختلط فيه "نتاج العقل " مع " نتاج الروح " مما أثار حفيظة زعماء الكنيسة ضده

بعد أن صارت الفلسفة اليونانية والأدب الروماني أقرب إلى عقله من المسيحية الوليدة بطقوسها الغامضة .

أما الفصل الثالث قضية : تحت عنوان : مرسوم الإملاء البابوى (١٠٧٥م) وخطبة مجمع كليرمون (١٠٩٥م) - دعوة لحرب صليبية عالمية .
وهى قضية محددة تتناول طبيعة العلاقة بين مرسوم الإملاء البابوى (جريجورى السابع) وخطبة مجمع كليرمون (أربان الثانى) من خلال قراءة النص لكلاهما حيث سعيا إلى زعامة العالم من خلال وحدة الكنيسة الكاثوليكية (العالمية) ومن ثم كان الصراع المحتدم بينهما وبين الطبقة العلمانية الملوك - الأمراء والنبلاء) وتوظيف هذا الصراع للدعوة لحرب صليبية بدأت فى الغرب ثم اتجهت إلى الشرق الإسلامى فى ضوء ما ورد فى خطبة مجمع كليرمون فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م .
والقضية لا تتصل بدراسة دوافع الحركة الصليبية فى مفهومها الشمولى وإنما تتصل بالدعوة الدينية الكاثوليكية التى تحولت منذ مرسوم الإملاء البابوى وحتى خطبة مجمع كليرمون إلى " دعوة عسكرية " عرفت خطأ باسم الحروب الصليبية .

أما الفصل الرابع : حتمية الوحدة بين مصر والشام فى ضوء أحداث الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ٥٦٤ – ٥٦٥ هـ/١١٦٩ م فيتناول قضية من أهم القضايا فى تاريخ الشرق العربى / الإسلامى ألا وهى وحدة مصر (جبهة الجنوب) والشام (جبهة الشمال) وضرورة هذه الوحدة على مر العصور فى مواجهة كافة الحملات والغزوات العسكرية الوافدة من الغرب ، وهى الحقيقة الثابتة التى أدركها صلاح الدين الأيوبى ضمن الحملات الثلاث التى أرسلها أستاذه نور الدين محمود فى مواجهة الحملات الصليبية القادمة من مملكة بيت المقدس اللاتينية حيث تعلم من سير الأحداث للحملة الصليبية / البيزنطية أن " مصر" هى الهدف الرئيس للصراع ، ومن ثم لابد أن يكون لها الدور الريادى فى إدارة

دفة هذا الصراع من خلال الوحدة بين جبهتى الجنوب والشمال وإلا أصبحت المنطقة الجغرافية الواقعة بين النيل والفرات مسرحاً لمسلسل النهب والاستغلال من جانب القوات الصليبية وغيرها من القوى المعادية المتحالفة معها .

ويأتى الفصل قبل الأخير ليعالج قضية : خصوصية مصر فى النظرية السياسية لحكم خلفاء صلاح الدين الأيوبى فى ضوء أحداث الحروب الصليبية وهى تناقش خصوصية مصر الثابتة عبر عصور التاريخ والتى لم يحسن خلفاء صلاح الدين توظيفها فى مواجهة القوى الصليبية ، بل على العكس فقد وظفوا هذه الخصوصية لمصر - بموقعها ومواردها البشرية والطبيعية - فى الاتجاه المعاكس الذى يخدم مصالح الصليبين ، وبدلا من أن تكون مصر عاصمة أكبر وأقوى دولة فى العالم - زمن صلاح الدين - محوراً رئيساً لاستكمال مسيرة الجهاد الإسلامى وتحرير باقى المستوطنات الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام نجد هؤلاء الخلفاء قد أضاعوا هذا الميراث التاريخى العظيم وحولوا مصر إلى بؤرة للصراع الداخلى فيما بينهم من أجل عيون السلطة والثروة مما أضاع هذا الميراث أدراج رياح التشتت ، والفرقة ، والطمع .

أما الفصل السادس والأخير فيتناول قضية " الخيانة الحاكمية زمن الغزو التترى للعراق والشام " وهذه القضية لا تبحث فى أحداث الغزو التترى (المغولى) للشرق العربى /الاسلامى ، وإنما تبحث فى قضية محددة وهى خيانة أهل الدولة لله والوطن ، وكيف تسببت هذه الجريمة العظمى فى سقوط النظام السياسى الإسلامى فى بغداد (٦٥٦هـ /١٢٥٨م) ومقتل آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم) ، وتدمير ونهب الموارد والثروات فى المدن العراقية والشامية بينما قاومت الشعوب العربية المغلوبة على أمرها هذا الغزو بالصراخ ، والبكاء والعويل ، والدعاء على هؤلاء الخونة !

كـــذلك نتنـــاقش دور " مـــصر " فـــى مواجهـــة هـــذا الغـــزو التتـــرى (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م) والتـصدى بحـزم لكـل أربـاب الخيانـة الـذين هانـت علـيهم أوطانهم فباعوها بثمن بخس لكى " يثبتوا على ماهم فيه " من السلطة والثروة . على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

.... وبعـــــد ،

فإن هذه القضايا التى نعرض لها فى فصول هذا الكتاب تعبر عن رؤية الباحث لما ورد فى المصادر التاريخية من حقائق التاريخ والتى تبدو أهميتها فى كونها خطوطاً حمراء يستحى كثير من المؤرخين الأقدمين والمحدثين أن يقتربوا منها أو أن يبرزوها فى ثنايا الأحداث التى تزخر بها تلك المصادر بالرغم من أهمية هذه الحقائق لأى باحث يبغى فهم حركة التاريخ الإنسانى بطريقة منهجية صحيحة خاصة أن هذه القضايا تتصل بالفترات والمراحل الانتقالية الحاسمة فى تاريخ الشعوب ، والتى يعقبها تغييرات جذرية فى مختلف مناحى الحياة السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والعقيدية وهو ما نحاول أن نناقشه من خلال تلك القضايا الحيوية عسى أن يكون فيها قدر من الإفادة لجمهور الباحثين والدارسين والقراء .

والله من وراء القصد

د/ علاء طه

حدائق القبة ـ القاهـــرة

٢١ ربيع الأول ١٤٣١هـ

٧ مارس ٢٠١٠م

الصليب في زمن قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧م)

" بين التوصيف الديني والتوظيف السياسي "



مقدمة:

تمثل قصة السيد المسيح عليه السلام من الميلاد إلى الوفاة (٣٤هـ) نوعاً من الإعجاز الإلهي المطلق في مواجهة الفكر البشري المحدود مما دعا البعض وأولهم اليهود إلى تفسير آيات الإعجاز تلك في إطار تآمري يثير الشك والريبة في كل ما أحيط بمولده من أحاكي اختلط فيها الواقع بالأسطورة ، والحقيقة بالخرافة إلى حد أن الخطاب الديني اليهودي عن المسيحية "مشيحوت" امتزج بالخطاب السياسي الصهيوني في محاولة لإظهار صورة المسيح في نصوص العهد القديم باعتباره البطل اليهودي "المخلص" الذي يخرجهم من ظلمة العبودية والشتات إلى نور الحرية والاستقرار في حياتهم الدنيا.

وقد اهتمت المصادر الدينية ـ عامة ـ بقصة ميلاد المسيح ، وأسهبت في ذكر آيات التكريم والإجلال لمولده من رحم أمه مريم العذراء لتظل هذه القصة مثار جدل بين أهل الزيغ من الذين كفروا بآيات الله وبين أهل التقوى من الذين آمنوا بقدرة الخالق الأعظم على تدبير شئون هذا الكون كيفما شاء بكلمة منه دون أن يمسه تعبٌ أو لغوب.

ففي القرآن الكريم: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" ، "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" ، "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكن بغياً قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا"[1].

---

(١) آل عمران: ٤٢-٥٩ ، مريم: ٢٠-٢١ ، ١٦-٣٥.

وفي الكتاب المقدس: "ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذ ملك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع".

"كما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس".

كذلك اهتمت المصادر الدينية المسيحية بمسألة "الصلب" باعتبارها الخلفية الأيديولوجية للعقيدة عند جمهور النصارى ، إذ من المعروف أن قصة صلب المسيح ـ في الكتاب المقدس ـ لا تعّد من الروايات الطويلة في تاريخ الرسل والأنبياء إلا أنها فاقت سائر القصص في غرابتها وغموضها وبخاصة في الفصل الأخير المتعلق بالصلب ذاته والذي ارتبط في المحتوى العقيدي للمسيحيين بفكرة "الخلاص" التي تتركز حول محورين رئيسين هما: الخطيئة الأولى ، والفداء "الصلب" إذ يرى معظم اللاهوتين المسيحيين أن خطيئة آدم ـ كما ورد في الكتاب المقدس ـ قد سرت في دماء بنيه ، وصار جميع البشر منذ أن عصى آدم ربه وهبوطه بأمر الله ـ هو وزوجته ـ على الأرض وحتى قيام الساعة خطاة عصاة يستحقون أشد العقاب وهو الموت. "... ، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها ، ...".

ويرون أن "الموت" حق على كل إنسان نتيجة هذا الفساد البشري الموروث إذ أبَى هذا الإنسان إلا أن يكون عاصياً بعد أن كان طائعاً في جنة الخلد وهذا هو "العدل" الإلهي الذي تزامن مع "الرحمة" الإلهية من خلال فكرة "الخلاص" لهذا الإنسان من عذاب الآخرة المقيم ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق "الفداء" أو "الصلب" ، ... وهكذا تم إهراق دم السيد المسيح على الصليب كي تتحقق صحة المعادلة الإلهية ... ، ومن يصلح لها سوى المسيح؟ "... ، لأن الذبيحة

يجب أن تكون طاهرة لا عيب فيها ، وأن تكون ثمينة ، وأن تكون من نوع الإنسان وأن تكون لها وجاهة عند الله".

... هذا مفهوم الصلب. فماذا عن "الصليب" من حيث توصيفه الديني وتوظيفه السياسي كما جاء في كتابات المؤرخين والرحالة المسيحيين ، وإن كانت هذه الدراسة في جانبها التاريخي تتحدد زمنياً بفترة حكم الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (٣٠٦– ٣٣٧م) وهي الفترة التي تبدو أهميتها في عدة أمور: أولها ، أنها الفترة التي شهدت تحولاً جوهرياً في التاريخ الإنساني بالانتقال من العالم القديم الوثني إلى العالم الوسيط المسيحي، وثانيها ، أن قسطنطين هو أول إمبراطور روماني وثني يعترف اعترافاً رسمياً بالديانة المسيحية في وقت عانى فيه سكان الإمبراطورية حالة من الفراغ الديني والجدب العقيدي دفعتهم إلى الاتجاه شطر الأديان الوضعية الوافدة من الشرق مثل ديانة "إيزيس" المصرية و "متراس" الفارسية ، و "سيبيل" في آسيا الصغرى.

أما الأمر الثالث والأهم في هذه الفترة الزمنية فهو أن الإمبراطور الروماني قسطنطين بعد انتصاره على خصمه ماكسنتيوس Maxentius في معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge بإيطاليا سنة٣١٢ أعلن على الملأ ـ وكان مؤرخه ايزبيوس حاضراً ـ أن السبب الرئيس في تحقيق هذا النصر المبين هو "الصليب"! كيف؟ هذا ما سوف تتناوله هذه الدراسة من خلال روايات المؤرخين والرحالة والكتاب المسيحيين في العصور الوسطى ، والتي حاولوا من خلالها تأكيد قدرة قسطنطين على الجمع بين زعامته السياسية ، وزعامته الدينية للعالم الروماني بعد رؤيته للسيد المسيح في منامه الذي شاهد فيه الصليب يتلألأ في سماء الملكوت العلوي ، وتحته عبارة "بهذا سوف تنتصر" Tou Tw Vika.

وهذه الفترة الزمنية - زمن قسطنطين - شهدت عملية التأصيل المعنوي والمادي لأهمية "الصليب" في العالم الإنساني المسيحي في العصور الوسطى وبداية العلاقة الوطيدة بين الدولة الوثنية والكنيسة في أوائل القرن الرابع تلك العلاقة التي وضع قواعدها الإمبراطور الروماني الذي وُلد وعاش وثنياً ومات مسيحياً أريوسياً ، ومع هذا كانت قصته - ولم تزل - مع الصليب جديرة بالبحث والدراسة.

وُلد قسطنطين Constantine the Great سنة ٢٧٤ من أبوين هما ، قسطنطيوس خلوروس Constantius Cholorus الذي كان يعتنق الديانة الوثنية ، ويشغل منصب قيصر في الامبراطورية الرومانية الغربية ، وهيلينا Helena التي صارت فيما بعد القديسة هيلانة Saint Helana ، وهي التي أرسلها قسطنطين إلى بيت المقدس حيث عثرت على الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح مثلما هو شائع بين جمهور الباحثين.

وحين اعتزل دقلديانوس الحكم سنة ٣٠٦م نشبت حرب أهلية استمرت حتى سنة ٣١٠م حيث كان هناك ثلاثة أباطرة يتصارعون على السلطة هم: ليكينوس Lecinius في الشرق ، ومكسنتيوس Maxentius في إيطاليا ، وقسطنطين Costantine في غاليا وبريطانيا اللتين كانتا أفقر أجزاء الامبراطورية وأقلها في عدد السكان ، ولم يتجاوز عدد المسيحيين بها ١٠/١ من مجموع شعوب العالم الروماني.

وفي سنة ٣١٢م انتصر قسطنطين على خصمه في الغرب مكسنتيوس في معركة القنطرة الملفية Milivan Bridge بالقرب من روما ليصبح إمبراطوراً على النصف الغربي للإمبراطورية ، وفي هذه السنة أعلن قسطنطين على لسان متحدثه الرسمي أنه صلى للرب المسيحي قبيل المعركة ، وأنه تلقى تعليمات أثناء عبوره جبال الألب لملاقاة خصمه مكسنتيوس بأن يضع شارة الصليب على دروع جنوده كي تجلب له النصر ، بل إن متحدثه الرسمي إيوزبيوس Eusebius والمؤرخ اللاتيني لاكتانتيوس Lactantius يؤكدان أن قسطنطين رأى المسيح في منامه الذي أخبره بأنه سوف ينتصر إن هو آمن به ، وأنه - أي قسطنطين - شاهد هو وجنوده - صليباً يتلألأ في السماء وتحته عبارة بأحرف من نور تقول

"بهذه الشارة سوف تنتصر" مما أشاع الحماس في صفوف الجنود ليحققوا هذا النصر المؤزر بقوة هذا الصليب.

"وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذي يرى ، وذهبت به الظنون كل مذهب. وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التي رآها بيمناه "الصليب" يأمره أن يتخذ إياها له شعاراً ، وأن يجعل منها حارساً أميناً في كل معاركه الآتية".

وبالفعل سارع قسطنطين باستدعاء أرباب الحرف والصنائع وأمرهم أن يصنعوها بدقة كما رآها وأوصاهم أن تكون من الذهب والأحجار الكريمة لتوضع على رأس كل جندي من جيشه. مع أن أحداً من هؤلاء الجنود لم يرْ شيئاً من تلك الرواية التي ذكرها هذان المؤرخان.

ويبدو أن هذه الروايات الوصفية التي طرحها المؤرخون المعاصرون من أمثال لاكتانتيوس وايوزبيوس لم تلق قبولاً يقينياً من المؤرخين والباحثين المحدثين خاصة أن هذه الروايات كتبت - غالباً - في زمن قسطنطين أو بعد وفاته مباشرة مما يعكس الحالة الوجدانية التي سيطرت على أقلام هؤلاء المؤرخين في مرحلة شهدت تحولاً جوهرياً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان من أهم معالمها اعتراف قسطنطين بالمسيحية ليصبح الإمبراطور مفوضاً من المسيح في إدارة شئون العالم الأرضي ، وهي النظرية التي فرضت نفسها فيما بعد على مسرح الحياة السياسة وعُرفت بالبابوية - القيصرية - Caesaro Papism والتي تُنادي بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض.

ومن الأدلة الأثرية التي تجعل هذه الروايات التاريخية محل جدل بين جمهور الباحثين ، تلك العملات المعدنية التي سُكت في زمن قسطنطين - بعد اعترافه بالمسيحية - وتحمل صورة إله الشمس التي لا تقهر ، وصورة الصليب في آن واحد

أو تلك العملات التي تصور شارة المسيح تدمر إحدى الحيات رامزة إلى نهاية الوثنية ، بينما في إحدى القطع الأخرى يبدو قسطنطين في زيه العسكري والشارة المسيحية (الصليب) تعلو خوذته ، ثم هناك ميدالية تعود إلى سنة ٣٣٠م ذات خصائص رومانية وثنية توضح الإلهة فيكتوريا (رب النصر عند الرومان) وهي تضع التاج بيديها على رأس الإمبراطور قسطنطين.

ويرى بعض الباحثين أن قسطنطين رغم إخلاصه وتعاطفه مع الديانة المسيحية فإنه لم يكن واعياً بأهمية التعبير عن هذا الإخلاص بطريقة صحيحة على عملاته خاصة أن طرز العملة الرومانية كانت تتغير سنوياً الأمر الذي دعا أحد الباحثين - منهم - يصفه بأنه كان "نصف متعلم يخلط بين الديانات وبعضها" بل اعتبره "رجلاً مخبولاً". بينما يرى غيره أنه كان "ميكافيللي" يعي جيداً ما يريد في مجال السياسة والحرب حتى وإن راهن على "الصليب" شعاراً لتحقيق النصر.

أما المؤرخ جونز فيري أن قسطنطين رأى في منامه ظاهرة كونية نادرة أشبه بقوس قزح (Rain-Bow) نتيجة سقوط كرات الثلج خلال أشعة الشمس التي هي معبوده ، وبدت الصورة أمامه وكأن الشمس تعانق الصليب ولأن المسيح هو "سيد الصليب" فقد أراد أن يحقق سيادته على هذا الكون من خلال رؤية خيالية ترضي أهواء المسيحيين ، ومن ثم تحول "الصليب المعنوي" إلى صليب مادي يضعه الجنود على دروعهم أثناء القتال.

ومن المعروف أن قسطنطين عندما اختار يوم الأحد عيداً أسبوعياً في الإمبراطورية الرومانية أطلق عليه يوم الشمس ولما اختار "الصليب" بعد ذلك شعاراً لجنوده كان يعلم أن غالبية هؤلاء الجنود وثنيون ولم يتحولوا إلى المسيحية بعد ، فجاء صليبه في صورة ترضى أهواء الوثنيين كذلك حيث ضم الحرفين الأولين من اسم المسيح في اليونانية وهما: "الخي X" و "الرو .P" أي خريستوس

Christos وبذلك تآلف حول هذا الشعار المسيحي جموع المتدينين من أتباع الصليب وأتباع الشمس في آن واحد.

ولعل المؤرخ ديورانت كان محقاً - إلى حد كبير - في رؤيته لتحول قسطنطين إلى المسيحية في هذه الفترة الحرجة من القرن الرابع والتي كانت فيه الكنيسة الغربية أشبه بغريق في بحر لجي ، وكان قسطنطين - منقذها - يمكث في مكان غير بعيد منصتاً لصوت استغاثتها ، ومتنصتاً على دوافع سادتها للتحالف معه.

يقول المؤرخ: "هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية أم حكمة سياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الخير هو الصواب ، لقد أحاط قسطنطين نفسه في بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين. وقلما كان بعد تحوله إلى الدين الجديد (المسيحية) يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس".

وجدير بالذكر أن قسطنطين لم ينل قدراً كبيراً من التعليم والثقافة ، ولم يكن مُلماً بطقوس الديانة المسيحية في الغرب الأوربي حتى أنه لم يتلق طقس المعمودية إلا على فراش الموت على يد أسقف أريوسي ، ومع هذا فإنه تصرف في الأمور الدينية باعتباره "أسقف" يدل على ذلك رئاسته لأول المجامع المسكونية (مجمع ينقية) في سنة ٣٢٥م، وفرضه لنظرية مذهبية تخضع لها كل الفرق المسيحية في محاولة سياسية منه للتوفيق بين المذاهب الدينية خاصة بعد شروعه في تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية على ضفاف البسفور (القسطنطينية) كبديل لروما القديمة على ضفاف التيبر.

ولقد كان أيوزبيوس حريصاً على تصوير كافة الانجازات التي قام بها قسطنطين بدءاً من النصر الذي حققه سنة ٣١٢م واعترافه بالمسيحية في سنة ٣١٣م ، ومروراً بمجمع نيقية سنة ٣٢٥م وانتهاء بتدشين العاصمة

الجديدة في سنة ٣٣٠م في إطار الرؤى والأحلام المقدسة التي يتلقى فيها التعليمات من المسيح الرب وهو يحمل الصليب المقدس الذي يذلل له الصعوبات ، ويحقق له المعجزات مما جعل قسطنطين يرى الصليب رمزاً دينياً لصفقة سياسية رابحة ومضمونة العواقب. ومن ثم بذل جهوداً مضنية في سبيل لحفاظ على وحدة الكنيسة باعتبارها حجر الزاوية في امتداد عمر الإمبراطورية الرومانية.

وعلى هذا فإن قسطنطين في ضوء رؤيته البدائية للديانة المسيحية لم يشغل فكره السياسي بالنظريات الفلسفية عن المسيحية في النصف الشرقي للإمبراطورية ساعده على ذلك الطابع الريفي للتدين بين سكان النصف الغربي ، وخُلو العالم اللاتيني من المذاهب المسيحية العقلية ، والمصطلحات المنطقية المعقدة التي سادت في الشرق المسيحي حول طبيعة السيد المسيح ، وأدت إلى كثير من المنازعات المذهبية التي مهدت لانفصال ديني حاسم بين الشرق "العقلاني" والغرب "العاطفي" الذي ظل يحتضن الصليب في أحلام المنام واليقظة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

ويتفق كثير من الباحثين الأوربيين على فطنة قسطنطين السياسية ونجاحه في توظيف الشعار المسيحي والعاطفة الدينية في تحقيق أهدافه وتأصيل عُرى الصداقة بين الدولة الوثنية والكنيسة المسيحية في القرن الرابع الميلادي.

والرأي - عندنا - أن قسطنطين لم يكن جاهلاً أو مشوشاً أو مخبولاً مثلما حاول كثير من الباحثين الأوروبيين أن يصوروه ، وإنما كان ذا حكمة سياسية وخبرة إدارية منذ أن انفرد بحكم العالم الروماني الغربي غداة انتصاره على خصمه مكسنتيوس سنة ٣١٢م في معركة القنطرة الملفية ، واعترافه بالديانة المسيحية في سنة ٣١٣م من خلال مرسوم ميلانو ومروراً بإنجازاته وإصلاحاته المدنية والدينية لتحقيق وحدة الدولة والكنيسة ، وانتهاءً بوفاته في سنة ٣٣٧م وتناوله سر

المعمودية على فراش الموت بمعرفة أسقف أريوسي مما يعني أنه عاش كاهناً ومات أسقفاً!

لم يكن قسطنطين عندما زعم أنه رأى الصليب متوهجاً وسط هالة من نور الشمس غافلاً عن حقيقة أن نجم الوثنية إلى أفول ، وأن شمس الكهانة إلى مغيب وأن "الصليب" الذي ادعى رؤيته إن هو إلا وحي يُوحِي إليه بأن سلطان الكنيسة قادم عما قريب ، وأن إنقاذ الدولة صار رهين تأييد الكنيسة له شكلاً وموضوعاً. ومن ثم يمكن القول بأن تحول قسطنطين عن الوثنية في اتجاه المسيحية كان تحولاً سياسياً عقيدياً يدلّ على ذلك أن اهتمامه الشديد بشعار المسيحية "الصليب" لم يشغله قط عن عشقه لشعاره الوثني "الشمس" بل أنه كان حريصاً ـ بعد ذلك ـ على التوفيق بين المذاهب المسيحية واتباع سياسة اللين والمهادنة مع عموم الأساقفة دون أن يغمض عينيه لحظة واحدة عن ديانته الوثنية التي هي مصدر قوته وهيبته.

وفي الوقت الذي كانت فيه يدا قسطنطين مضرجتين بدماء ضحاياه بما في ذلك زوجه وولده ـ وهو ما ينفي تدينه ـ كان ينظر بعين الرحمة والعطف إلى الكنيسة ، التي أغدق عليها من سابغ نعمه المادية والأدبية ، كما ورد في "تاريخ إيوزيبيوس عن الكنيسة" بل كان على استعداد لأن ينجز من أعمال البر والتقوى كل ما من شأنه توطيد أواصر المودة مع الأساقفة وتوسيع دائرة سلطانه في هذا العالم. حتى وإن اقتضى الأمر أن يرسل أمه هيلينا إلى القدس للبحث عن الصليب في المكان الذي شهد صلب المسيح عليه السلام ويعرف باسم "الجلجثة" أو "الجمجمة" كما ورد في التوراة أو "الجلجلة" كما ورد في كتابات الرحالة المسيحيين، وقد نجحت هيلينا في إنجاز مهمتها المقدسة التي اهتزت لها قلوب المسيحيين في أنحاء العالم المسيحي. لتكون جدير بلقب القديسة هيلانة Saint-Helana مثلما صار قسطنطين جديراً بلقب "الحواري الثالث عشر"

في عداد الحواريين ، وبهذا تلاشت كل الذنوب والآثام التي اقترفها الابن وأمه وبوركت كل مجريات أعمالهم بفضل الصليب.

ويبدو أن قصة الصلب قد سيطرت على أذهان كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا القدس في بداية عصر الحروب الصليبية ، وكانوا مشوقين إلى مشاهدة الموضع الذي عثرت فيه هيلينا على الصليب الحقيقي بزعمهم.

والرحالة الألماني ثيودريش يصف لنا هذا الموضع بقوله: "نحو الكنيسة المبجلة للقديسة الإمبراطورية هيلانة ينزل المرء نحو ٣٠ درجة أو أكثر باتجاه الشرق من الكنيسة نفسها حيث يوجد هناك مذبح مقدس جداً مخصص لها. وهناك أيضاً ينزل المرء على اليد اليمنى خمس عشرة درجة أو أكثر إلى داخل مغارة تحت الأرض حيث يمكن أن يشاهد المرء على الزاوية اليمنى للمغارة مذبحاً مفتوحاً وتحته صليب مقطوع من الأرضية في البقعة التي يقال أن الإمبراطورة وجدت صليب السيد المسيح. وهناك يوجد مذبح مخصص للقديس جيمس James (يعقوب) ولا يوجد لهذه الكنيسة أية نافذة أخرى سوى الفتحة الموجودة في طابقها العلوي فقط.

أما كنيسة الضريح المقدس (القيامة) والتي شيدت بمعرفة هيلانة فإنها تضم بين ذخائرها صليباً مذهباً يعتقد انه من أعمال الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) ، وتحت قاعدة الضريح نص مقدس مكتوب بحروف من الذهب عن نهاية السيد المسيح في الحياة الدنيا.

كذلك يصف لنا ثيودريش صورة المسيح في إحدى العمائر المقدس وتظهر معه أمه مريم العذراء ، وأيضاً يوحنا المعمدان وجبريل وتصور المسيح حاملاً الصليب بيده اليسرى وحاملاً آدم في يده اليمنى ، ينظر عالياً بنظرة ملوكية نحو السماء رافعاً قدمه اليسرى بخطوة واسعة بينما ما تزال قدمه اليمنى مثبتة

على الأرض على الرغم أنه يدخل الجنة بينما يقف الأتباع حوله ، وهم : أمه والقديس يوحنا المعمدان وجميع الحواريين. ويوجد تحت قدمه درج يصل عبر القوس من جدار إلى آخر ويشتمل هذا النقش على تلك الترانيم:

مُبارك المسيح الذي صُلب بدمه ولحمه

مبجّل مسيحنا الذي قُتل من أجلنا

عظّموه ، لقد انبعث من قبره

ولم ينس الإمبراطور الروماني "الوثني" وأمه هيلينا أن يكونا ضمن المنظومة "المسيحية" باعتبارهما المؤسس الأول للكنيسة التي أنشئت على غرار الكنيسة الموجودة في إكس لاشابل ، وتتميز "الروتندا" بصورة المسيح وأمه والحواريين الاثنى عشر ، ثم صورة الحواري الثالث عشر قسطنطين الذي يجلس "بعظمة ملوكية مرتدياً الثوب الروماني الرسمي القديم" كما تجلس القديسة "هيلانة" بملابس ساحرة في مواجهة ابنها الإمبراطور.

ومن الملاحظ - هنا - أن الكتابات المدونة في هذه الكنيسة كتبت بأحرف لاتينية ويونانية مما يؤكد حرص قسطنطين على الجمع بين الثقافتين الغربية والشرقية وهو نفس حرصه على الجمع بين وثنية الأباطرة ، ومسيحية الرهبان وكأنه بذلك يريد أن يطوي صفحات ماضيه الأسود الملطخ بدماء منافسيه وضحاياه ويسطر صفحات جديدة "مقدسة" تغفر له الخطايا والآثام ، ليكون جديراً بزعامته لكل كنائس العالم الروماني وبلقب "الرسول الثالث عشر".

وفي تصورنا أن التوظيف السياسي للصليب كان بدعة سنها قسطنطين في القرن الرابع الميلادي بإيحاء من مستشاره الأسقفي أيوزيبيوس الذي كان يرسم له أسلوب التعامل مع الكنيسة ليكون نموذجاً لحياة مثالية خالية من البربرية

والتوجس وغيرها من الصفات الدونية التي أتصف بها أباطرة العصور الوسطى عامة - ومن بينهم قسطنطين - لأن الأدب التاريخي في أوائل العصور الوسطى مثل سير القديسين Hagiography ارتبط في مفهومه ومغزاه بالتدوين التاريخي أو "التاريخ" Historiography من حيث تقديم "المثال" لا "الواقع" وهذا ما حرص عليه مؤرخ كنسي مثل إيوزبيوس من خلال قصة "الصليب" الذي ظهر في السماء ليراه الإمبراطور/ الكاهن بعد أن أخذته سِنة من النوم.

وهى فكرة تأثر بها الملوك والأباطرة في القرون التالية تعبيراً عن النصر والعزة والمجد وإن لم يتحقق لهم ذلك في الواقع على سبيل التعويض النفسي لما أصابهم من ويلات الحروب والمعارك وكسباً لتعاطف رعاياهم المسيحيين.

هكذا حاول أيوزبيوس - من خلال الشعار المسيحي - أن يجسد قسطنطين قديساً تقياً لا إمبراطوراً همجياً لكي تعشقه الكنيسة الباحثة عن الدعم الأدبي والمادي من جانب الأباطرة الرومان حتى وإن كان هذا الدعم عن عدم اقتناع منهم لأن الهدف مشترك بين الطرفين - الزمني والديني - وهو استمرارية المسيحية في ظل استمرارية الإمبراطورية وهو ما تحقق للسلطة الزمنية لمائة سنة تالية ولهذا كان "الصليب" بالنسبة لقسطنطين شعار التفاؤل ، ورهان الكسب المضمون في مجال الحرب والسلم لكي يدخل العالم الوسيط أعظم مرحلة من مراحل التحول التاريخي بهذا التزاوج الميمون بين الشعار الوثني والشعار المسيحي.

أما "دانيال الراهب" الذي زار القدس سنة ١١٠٦ – ١١٠٧م ، فقد شاهد جميع الأماكن المقدسة المسيحية التي جاسها السيد المسيح بقدميه ، ووصفها لنا بحال من الرهبة والخشوع الزائدين إذ يقول:

"لقد شاهدت كل هذه الأماكن بعيني الآثمتين ، والله برحمته قدر لي أن أري كل ذلك بعد أن أنتابني شوق عظيم لسنوات عديدة. إخواني ، آبائي ، أسيادي اغفروا لي خطاياي ،

اصفحوا عن جهلي وعن البساطة التي سوف أقدم بها وصفاً عن مدينة بيت المقدس الطاهرة وتلك الأرض المباركة".

وعندما يصل دانيال في رحلته المقدسة إلى جبل ترودوس Troodos يصف لنا مشهد الصليب الخشبي الذي عثرت عليه القديسة هيلانة - أم قسطنطين بقوله: "أقامته الإمبراطورة لطرد الأرواح الشريرة وعلاج جميع أنواع الأمراض ووضعت في هذا الصليب أحد مسامير المسيح المقدسة ، وقد تم كثير من الشعائر والمعجزات في هذه البقعة ، وهذا الصليب معلق في الهواء دون أن يكون متصلاً بالأرض إنها الروح المقدسة التي تبقيه معلقاً في الفضاء".

وهنا نلاحظ التأثيرات الوجدانية للإنجازات التي قامت بها هيلانة على الزائرين لهذا المكان المقدس وغيره ، وما توحي به في نفوس هؤلاء من ذكريات الصلب للسيد المسيح ، ومعجزاته ، وآلامه به في نفوس هؤلاء من سائر البشر، بحيث يصبح الصليب رمزاً لتضحيته ومقاومته من أجل سائر البشر والفساد في هذا العالم الدنيوي الآثم ، حتى أن الحاج الروسي دانيال يري أن عينيه الآثمتين شاهدت ما لا يستحق أن يراه في هذه الأماكن المقدسة وبخاصة هذا الصليب المعلق فوق جبل ترودوس بفلسطين.

" ... ، وأنا غير الجدير مررت بهذا المكان".

ومن الملاحظ في الروايات الوصفية لدانيال الراهب أنه أضاف إليها من روايات أخرى مسموعة ليس لها أساس من الواقع ، ناهيك عما جاء في التوراة من روايات تأثر بها إلى حد كبير نذكر منها على سبيل المثال ما ورد في التوراة عن قصة "الذبح" وكيف حاول أحبار اليهود إسقاط الرواية على "اسحق" ابن إبراهيم من زوجه سارة عليهم السلام.

"فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معاً. وكلم اسحق إبراهيم آباه وقال يا أبي. فقال هاأنذا يا ابني. فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم الله يري له الخروف للمحرقة يا ابني. فذهبا كلاهما معا. فلما آتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح. ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم فقال هاأنذا فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني، ...،".

ومن المعروف أن قصة الذبح كانت في مكة ولم تكن في فلسطين كما جاء في التوراة ، وهو ما تأثر به دانيال في روايته التي خلط فيها بين "مذبح إبراهيم" والمكان الذي شهد ـ كما يعتقد ـ صلب المسيح. "ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول الرب من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكبّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ...، ثم رجع إبراهيم إلى غلامه فناموا وذهبوا معا إلى بئر سبع. وسكن إبراهيم في بئر سبع".

كما يصف "ثيودريش" كنيسة صغيرة مخصصة للصليب المقدس ، وهى تقع على مقربة من كنيسة القديسة مريم ، ويوجد بها جزء من الخشب المقدس الذي استخدم في عملية الصلب ، وفي مقابل هذه الكنيسة توجد كنيسة صغيرة ذات قدسية خاصة حيث خصص مذبح عظيم القدسية للصليب المقدس. وهذه القطعة مغطاة بالذهب والفضة والجواهر ، وعندما تتطلب الحاجة يحمل المسيحيون هذا الرمز المقدس ضد الوثنيين في المعركة وقد زينت هذه الكنيسة الصغيرة بالفسيفاء بطريقة رائعة ، وفي الجانب الشرقي قرب هذه الكنيسة يدخل المرء

إلى الكنيسة مظلمة عبر نحو عشرين درجة حيث يوجد مذبح عظيم القديسة ، وتحت الأرضية حيث يمكن رؤية علامة الصليب ، ويقال أن المسيح قد سجن في هذا المكان عندما كان ينتظر الصلب" وفي جانب آخر يلاحظ المرء صورة مرسومة للسيد المسيح وهو على "الصليب" وهى واقعة فوق باب الأديرة ، وحولها هذه الأبيات المنقوشة:

"أنت من يعبر هذا السبيل

وأنت من تسبب في أحزاني

وقد عانيت ذلك لأجلك

فلأجلي أنت جنبي البلاء"

ويشير "دانيال الراهب" إلى إحدى الكنائس الصغيرة والتي كانت في الأصل كنيسة كبرى شيدها قسطنطين بالقرب من المكان الذي وجدت فيه هيلينا الصليب المقدس ، وهو المكان الذي جاءته مريم المصرية لتقبيل الصليب "ولكنها منعت من الدخول من قبل الروح الطاهرة ، وبعد التوسل إلى العذراء المقدسة التي كانت صورتها في الرواق استطاعت دخول الكنيسة وتقبيل الصليب المقدس ، ... ، وقرب هذا الباب هناك المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة على الصليب الحقيقي".

وهكذا نجح قسطنطين منذ اعتناقه المسيحية في التأصيل لفكرة قداسة الصليب وما يرتبط بهذه القداسة من معجزات حتى صار "الصليب" عنوانا مقدساً لكل الكنائس والأديرة والأبرشيات على مر العصور ، وسمة مميزة لكتابات مؤرخي الحروب الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

أضف إلى هذا أن المؤرخين والرحالة الوافدين على بيت المقدس في بداية القرن الثاني عشر من أمثال فوشيه الشارتري Fucher of chartres ، ودانيال الراهب - كانوا متأثرين إلى حد كبير بالمناخ المعنوي العام عقب الاحتلال الصليبي

للقدس الشريف وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية في فلسطين العربية الإسلامية الأمر الذي دفع هؤلاء المؤرخين والرحالة إلى المبالغة والتهويل ومجافاة الحقيقة في كثير من الأحيان وهو ما أشار إليه فوشيه الشارتري في معرض ذكر كثير من الراويات الخاصة بالأماكن المقدسة المسيحية ، وحذا حذوه في ذلك دانيال الراهب ، ومن بعده ثيودريش ، ووليم الصوري ، وغيرهم من المؤرخين والرحالة الذين تحاملوا على المسلمين الموحدين - إلى حد كبير - ونعتوهم بصفات لا تمُت بصلة لواقعهم الإيماني ، فتارة يصفونهم بالكفار ، وتارة أخرى بالوثنيين وغيرها من الكلمات الشائعة في كتاباتهم والتي تنم عن حقد دفين للإسلام والمسلمين من ناحية وجهل مطبق بحقائق الحضارة الإسلامية التي نهلت منها أوربا المسيحية لأكثر من ثمانية قرون متتالية من ناحية أخرى.

والذي يعنينا هنا من روايات فوشيه الشارتري ما ذكره عن "الصليب" ضمن أحداث الغزو الصليبي للأرضي المقدسة في فلسطين ، ويشير فيها إلى المغارة التي وجدت فيه هيلينا - أم قسطنطين - الصليب الذي صلب عليه المسيح عليه السلام ، وبعض الذخائر الأخرى "الرمح ، والإسفنجة ، والبوصة ، والمسامير".

يقول فوشيه: **"وقد أرضى الله في تلك الفترة العثور على قطعة صغيرة من صليب الرب ....، وحمل الجميع هذه القطعة ، وهي على شكل صليب طُلي جزء منه بالذهب والفضة،..".**

وفي تصورنا أن المجتمع في الغرب الأوربي منذ زمن قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) وحتى زمن البابا - جريجوري الأول (٥٩٠ - ٦٠٤م) كان مهيأ لقبول سائر الأفكار اللاهوتية المتعلقة بقصة السيد المسيح والتي من أهمها مسألة الصلب والطقوس الكنسية المعبرة عنها والتي تأثر بها الرحالة والمؤرخون المسيحيون في كتاباتهم ومشاهداتهم حتى صارت الديانة المسيحية في فكر عامة

الناس وكأنهما قصة حياته وسيرته الذاتية ، الأمر الذي دفع عدداً من أباء الكنيسة من أمثال أمبروز (ت ٣٩٧م) ، وجيروم (ت ٤٢٠م) ، وأوغسطين (ت ٤٣٠م) وغيرهم إلى الاهتمام بالدراسات الفلسفية الكلاسيكية والاستفادة منها في مناقشة تلك المسائل اللاهوتية المعقدة والتي صارت خلال تلك الفترة محل تساؤلات من جانب جمهور المثقفين المسيحين.

والروايات التي سردها أيوزيبيوس أسقف قيسارية ومؤداها أن الإمبراطور قسطنطين انتصر في معاركة الحربية بفضل "الصليب" الذي رآه في منامه عشية زحفه لملاقاة خصمه اللدود مكسنتيوس " في إيطاليا - تؤكد لنا طبيعة العلاقة بين العقيدة المسيحية في نفوس الذين أمنوا بهذه الديانة الجديدة وبين هذا الشعار الديني الذي اتخذه قسطنطين في القرن الرابع الميلادي وسيلة لتبرير كافة أفعاله السياسية والعسكرية ، وهو ما ساعد - إلى حد كبير - على انتشار المسيحية وازدياد نفوذ رجال الكنيسة في القرن الرابع والخامس الميلاديين.

وثمة نص في الكتاب المقدس عن أهمية "الصليب" ودلالته في إثبات الهوية الإيمانية لتلاميذ السيد المسيح ، ومبلغ الولاء العقيدي لتعاليم المسيحية يكشف عن واقع الحياة الدينية في زمن الإمبراطور قسطنطين ، وحرص الكنيسة على الترسيخ لمعتقد "الصلب" في نفوس المسيحيين من خلال طقس "التناول" والذي يشارك فيه المسيحي بطريقة رمزية يتناول كسرة من الخبز "الجسد" وجرعة نبيذ "الدم" كي يتحقق له الاتصال الروحي من أجل التطهير والخلاص وكان مسيحيو العصور الوسطى يعتقدون إمكانية تحول هذا الطقس الرمزي إلى واقع حياتي كما ورد في الكتاب المقدس:

"حينئذ قال يسوع لتلاميذه إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" ، "لأن جسدي مأكل حق ، ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه،..."

(متى ١٦: ٢٤ ،يوحنا ٨: ٢١ ،مرقص ١٨: ٣٤، لوقا ٩: ٢٣) .

"هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل فيه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد ، فالخبز الذي أعطى هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم". (يوحنا ٦: ٤٦-٥١) .

" ولما قال أحد الحواريين : حاشا لله يارب من الصلب ، فوبخه قائلاً : أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس " (متى ١٦: ٢٣) .

وثمة مخطوطات عثر عليها سنة ١٩٤٥م وموجودة بالمتحف القبطى بالقاهرة تضمنت نصوصاً باسم بعض الرسل والقديسين وتروى مزيداً من التفاصيل عن قصة الصلب الواردة فى الأناجيل الأربعة المعروفة .

وبعد ، فإن التوصيف الديني للصليب سار على التوازي مع التوظيف السياسي لهذا الشعار المسيحي في الأطوار الزمنية المتعاقبة منذ زمن الاعتراف الأول بالديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي ، وحتى زمن الحروب الصليبية التي اتخذت من الصليب رداءً دينياً لممارستها اللادينية. ولم يكن الصليب يوماً سبباً في الصراع بين الفرقاء ، وإنما كان -لم يزل- وسيلة لتبرير هذا الصراع في أطره الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

المصادر والمراجع والدراسات العربية والمترجمة

• القرآن الكريم

- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)
(طبعة العيد المئوي - دار الكتاب المقدس ، ١٩٨٣م)

اسحق عبيد تاوضروس: "قصة عثور القديسة هيلانة على خشب الصليب،أسطورة أم واقع" (القاهرة ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجد ١٧ ، ١٩٧٠م) ص ٥-٢١.

إكرام لمعي: الاختراق الصهيوني للمسيحية - ندوة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب ، ١٩٩٢م (طبعة دار الشروق).

ألفرد بتلر: فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد (القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٥م)

ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين ، ترجمة وتحقيق ودراسة سعيد عبد الله البيشاوي ، ورياض شاهين (عمان - الأردن ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣)

جوانفيل: القديس لويس ، حياته وحملاته على الشام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م)

جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ - ١٤٥٣م)
(الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨م)

دانيال الراهب: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين ، تعريب وتعليق ، سعيد عبد الله البيشاوي ، وداود إسماعيل أبو هدية ، عمان الأردن ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م)

رأفت عبد الحميد محمد: الدولة والكنيسة (القاهرة ، دار المعارف ط٢ ، ١٩٨٢م)
الجزء الأول - "قسطنطين"

سانت موس: ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ - ٨١٤م) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه ، السيد الباز العريني (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م).

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى ، جزءان في مجلدين ، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١٩٩٦م.

سعيد مراد: المدخل في تاريخ الأديان (القاهرة ، دار عين ، ط١ ، ٢٠٠٠م)

الموسوعة العربية الميسرة ، جزءان في مجلدين ، إشراف محمد شفيق غربال (القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٥م).

عبد المسيح اسطفانوس: المسيحية والمسيحيون واللغة العربية في القرون الأولى حتى سنة ٦٠٠ (القاهرة ، د. ت).

السيد الباز العريني: تاريخ أوربا العصور الوسطى (بيروت ، دار النهضة العربية ، د. ت).

فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة زياد العسلي (عمان ، دار الشروق ، ١٩٩٠).

فيشر: تاريخ أوربا القصور الوسطى "الجزء الأول" ترجمة ، السيد الباز العريني (القاهرة ، دار المعارف ، د. ت).

نعيم حنا: عقيدة الخلاص بين المسحية والأديان الرضعية في آسيا (رسالة ماجستير ، جامعة الزقازيق ، ١٩٩٨م).

نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة حسين مؤنس ،محمود زايد(القاهرة ،١٩٥٧م)
نورمـــان كـــانتور: التـــاريخ الوســـيط ، ترجمـــة وتعليـــق قاســـم عبـــده قاســـم (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠٠م).
وُل ديورانت: قصة الحضارة - "الجزء الثالث" ترجمة محمد بدران (القاهرة ، ١٩٦٤م)

المصادر والمراجع الأجنبية

Alfold (A.):

- **The Conversion of Constantine and pagan Rome, London, Oxford, 1948.**

EVSEBIVS:

- **Historia Ecclesiastica: Nicene 12, 73-381 (= P . G . XX 45 – 906).**
- **Vita Constantine: Nicene 12, 473 – 580 (= P. G . XX905 – 1232).**

Jones (A. H. M.):

- **Constantine and the conversion of Europe, penguin, 1972.**

Macmullen (R.):

- **Constantine, New York, 19971.**

Painter (S.):

- **A History of the Middle Ages, New York, 1954.**

Saint Augustine:

- **The city of Good , Baltimore, penguin, 1972.**

Thompson (J. W.)

- **History of the Middle Ages , 300 – 1500, London, 1931.**

Vasilieve (A.):

- **Histoire d, L'Empire Byzamtine 2 vols, paris, 1932.**

Walson (H.) The philosophy of the church fathers, Harvard university, 1970.

الفكر العقيدى للإمبراطور جُوليان

بين الشك واليقين



الفكر العقيدى فى الإمبراطورية الرومانية بعد ظهور المسيحية :

قبيل اعتلاء قسطنطين Constantine (٣٠٦ - ٣٣٧م) حُكم العالم الرومانى كان آباء الكنيسة يبذلون قصارى جهدهم لمقاومة السلطة الملكية المطلقة التى امتزجت فيها القوة بالقداسة التى تجسد الإمبراطور الرومانى فى إطار الوحدانية الإلهية على الأرض والتى تقابلها الوحدانية الإلهية فى السماء ليكون الإمبراطور المقدس نائباً للإله فى العالم السرمدى وهى النظرية التى سادت بين حكام الشرق القديم قبل ميلاد السيد المسيح وتأثر بها الحكام الرومان فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد .

وفى القرن الثالث الميلادى صار الأباطرة الرومان أقل قداسة وهيبة فى نفوس العباد الذين كانوا فى حاجة إلى منقذ " مخلص " يمكّنهم الارتباط به دوماً دون شك أو توجس والهروب إليه حينما يريدون بحثاً عن الحياة العُلوية السامية التى تغسلهم من ذنوبهم كما يغسل البَرد الثوب الأبيض من الدنس ، وهو ماسعت إليه الديانة اليهودية من قبل عن طريق صياغة مذهب اخلاقى صارم على أساس الوحدانية ولكنها فشلت فى تحقيقه على أرض الواقع .

وقد أطلق المسيحيون على أنفسهم اسم اكليزيا Ecclesia وهى نفس الكلمة التى استخدمها اليهود فى التوراة بمعنى شعب الله المختار وكأنّ المسيحيين الأوائل يريدون أن يكونوا مجتمع بنى إسرائيل الجديد الذى تتمتع فيه الكنيسة الغربية الكاثوليكية بكيان عالمى يتفوق على سائر الكيانات المحلية للكنائس الأخرى فى أنطاكية ، والإسكندرية ، وفلسطين وغيرها من مدن الكراسى الرسولية لتصبح تلك الكنيسة العالمية الكيان الروحى كل المسيحيين بما في ذلك الأباطرة

وان كانت أسقفية الإسكندرية من ابرز الأسقفيات فى العالم من حيث محافظتها على تقاليد الكنيسة الأولى.

وبالرغم من اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول سنة ٣١٣م بالمسيحية ديانة رسمية فى العالم الرومانى - لتبدأ اكبر مشكلة فى تاريخ العصورالوسطى بين الدولة والكنيسة فى القرن الرابع الميلادى. فان الديانات الوثنية كان لها ذيوع هائل بين كثير من الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للإلهة الوثنية لقضاء حاجتهم الدنيوية .

وكانت العقائد الدينية الوافدة من الشرق ملاذاً لهم من شرور هذا العالم المادى مثل ديانة سبيل Cybele من أسيا الصغرى،وديانة متراس Mithras (إله الشمس الذى لا يقهر) من فارس ، وديانة ايزيس من مصر هذا بالإضافة إلى الديانة المسيحية الوافدة من فلسطين حيث وُلد السيد المسيح عليه السلام زمن الحكم الرومانى .

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية جوهرية وشائكة ومعقدة لم تُحل حتى يومنا هذا، حتى صار الحديث فى المسائل اللاهوتية لا يقتصر على رجال الكنيسة من الأساقفة والقساوسة وغيرهم من رعاة شعب المسيح ، بل امتد ليشمل كافة الشرائح الاجتماعية بما فى ذلك الخدم والعبيد والاقنان وغيرهم من عامة الناس الذين صار الحديث بينهم ومع الآخرين حول طبيعة السيد المسيح أمر اعتيادياً فى حياتهم اليومية .

والواقع أن هذه المشكلة " طبيعة المسيح " قسمت الكنيسة العالمية إلى كنيستين والعالم الرومانى إلى عالمين لعدة قرون حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى الذى حسم هذه الخلافات المذهبية بنصوص قطعية مستندة إلى رؤية عقلية ومنطقية تدور حول وحدانية الإله ، وبشرية المسيح ، وهذه

النصوص تفند مانادى به آباء الكنيسة من أمثال اثنا سيوس القائل بفكرة الثالوث المقدس والتى تحتم مساواة المسيح " الابن " للإله " الأب " فى كل شئ بحكم أنهما من عنصر واحد وكان من الطبيعى أن ينتشر هذا المذهب الاثناسيوسى فى الغرب الأوربى حيث المستوى الحضارى المتواضع لسكانه الذين تميزوا بنوع من البدائية الفكرية بينما انتشر المذهب الأريوسى بإطاره الفلسفى فى الشرق ، وهو المذهب القائل بان المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن ولما كان المسيح " الابن " مخلوق للإله "الأب"

فهو لاشك دونه فى الطبيعة والقدرة وبالتالى فان التعادلية بين الخالق والمخلوق أمر غير مقبول فى الفكر العقيدى للإنسان ، وهى الفكرة التى اخذ بها العالم اليونانى / الرومانى القديم فيما يتصل بالتمييز بين مستويات الإلوهية .

وفى هذا المعنى يقول أريوس : " أومن بإله واحد متعال يفوق حد التصور ، منطو على نفسه وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا باى شئ له نهاية ، وهو فريد لاشبيه له ، أزلى لا بداية له لا يموت ، صالح وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات - وعندما شاءت إرادته أن يخلق عالما له نهاية احتاج إلى وسيط ، ولم يكن هذا الوسيط قوة خالقه وإنما كان عاملاً بسيطاً علمه الأب كيفية القيام بهذه المهمة وعلى ذلك فان القوة الخالقة من صفات الأب " .

ويبدو أن أتباع مذهب "اثناسيوس" فى الغرب كان يعتمدون فى عقيدتهم على العاطفة الدينية الخاصة تجاه السيد المسيح ، ولذا فان محاولة تصوره فى إطار بشرى يمثل عندهم نوعاً من الامتهان لذاته وهو ما لاتقبله الشرائح الاجتماعية من عامة الناس الذين آثروا أن يروا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام " معبوداً " لا " عبداً " كما هو الحال عند الاريوسيين الذين ضموا فى صفوفهم الإيمانية كثير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء الذين أقاموا عقيدتهم

علـى أسـاس مـن العقـل والمنطـق " أن الابـن لـيس مـساوياً لـلأب فـى الأزليـة وليس من جوهره ...." .

لقـد أجهـد النـاس أنفسهم فـى الغـرب والـشرق بحثـاً عـن حاجـاتهم الماديـة والروحية فى الديانات الوثنية الغامضة وتبعهم فى ذلك الشرائح الاجتماعية الخاصة من المتعلمين والمثقفين والأثرياء خارج نطاق القوميات والحواجز الطبقيـة ،ناهيك عن عبودية الكنسيين والأباطرة من أرباب السلطتين الدينية والزمنية .

ولـذلك فـان الإمبراطـور قنـسطنطين الأول ظـل - بعـد اعترافـه بالديانـة المسيحية - ينظر بإحدى عينيه إلى " الصليب " وبالعين الأخرى إلى " الشمس " لكى يتخذ موقفاً وسطياً بين النموذج المسيحى والنموذج الوثنى ، وهو نفس الموقف الـذى اتخـذه قنـسطنطين للتوفيـق بـين أتبـاع المـسيحية الاثناسيوسـية ،ونظـرائهم الأريوسيين من خلال عقد المجمع المسكونى فى نيقية سنة ٣٢٥م والذى حـاول فيـه إيجاد معادلة مذهبية توفيقية .

ومما لاشك فيه أن عقيدة التوحيد كانـت منـذ بدء الخليقـة هى العقيدة الثابتـة والـدعوة المـشتركة لكـل الأنبيـاء والرسـل منـذ آدم عليـه الـسلام وحتـى محمـد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ولكن كثيراً من الناس أبوا إلا أن يكونوا منحرفين عن الخط الايمـانى ، والـصراط المـستقيم الـذى ارتـضاه الله لعبـاده حبـاً ، ورحمـة ، ورأفـة ورهبانية .

" ....وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِم وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "*[1] .

---

[1] البقرة : ٤ ،٥.

" وَلَقد أرسَلنا نُوحًا وَإبراَهِيَم وَجَعَلنا فِى ذُرِيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنهُم مُهتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنهُم فَاسِقُونَ *ثُمَّ قَفَّينا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّينا بِعِيسَى ابنِ مَريَمَ وَآتَينَاهُ الإنجِيلَ وَجَعَلنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأفَةً وَرَحمَةً وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَاكَتَبنَاهَا عَلَيهِم إلاَّ ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللهِ فَمَارَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَينَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنهُم أجرَهُم وَكَثِيرٌ مِّنهُم فَاسِقُونَ * "[1] .

ولذلك فان الوثنية التوحيدية التى تمسك جوليان بأهدابها قبيل أن يصبح إمبراطوراً للعالم المسيحى لم تكن - فى تصورنا- بقايا من أطلال الوثنية القديمة فى العالم اليونانى/ الرومانى بقدر ما كانت تجديداً للفكر العقيدى- بعد جمود- وإرهاصاً لإحياء ملة التوحيد - بعد موات - وإيقاظاً لدعوة الذين خلوا من المفكرين والفلاسفة فى حرية العبادة والتواصل مع الله .

وهذه القراءة الجديدة فى سيرته وطبيعة علاقته بالدين تكشف عن صفحات مضيئة فى الفكر الانسانى فى تلك الفترة القصيرة من حكم هذا الإمبراطور (٣٦١ - ٣٦٣م) الذى حاول أن يحقق نوعاً من العدل والرحمة فى العلاقة بين المخلوق والخالق - أياً كانت طبيعته المذهبية - وكذلك الترسيخ للمبادئ الكريمة التى دعا إليها المسيح وسائر الأنبياء والرسل لإقامة حياة فاضلة تمناها لنفسه وللآخرين من اليهود والنصارى والوثنين مما يجعلنا نتعامل مع تلك الشخصية الحاكمة بنوع من التقدير والإجلال إذ كانت صحوته الوثنية رسالة لحاضر هذا العالم الشقى ومستقبله وهى تلك الرسالة التى نحاول قراءتها فى هذه الدراسة .

---

(١) الحديد : ٢٦ ، ٢٧ .

جوليان المرتد ، متى ، وكيف ، ولماذا ؟

يُعرف"جوليان"فى المصادر والمراجع المسيحية باسم جوليان المرتد أو " العاص " أو "ابن الشيطان " JulianTheApostate وهى تسمية تأباها المصادر الإسلامية التى تفرق بين الذين آمنوا بالمسيحية كديانة سماوية وبين الذين ابتدعوا مذاهب نسبت إلى المسيحية وهم " النصارى" ، ولذلك فان تلك المصادر تذكر جوليان أو" يوليانوس"باعتباره ثالث ملوك النصارى" البيزنطين - الروم" .

" .... ثم ملك بعده يوليانوس (جوليان) ابن أخيه سنتين ،وكان يدين بمذهب الصابئين ويخفى ذلك فلما مَلك أظهرها ، ...." "وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية"

لقد أثار جوليان المرتد - فى نظر الكنيسة - اهتمام كثير من الباحثين والدارسين سيما أولئك الذين يعرفون للثقافة الكلاسيكية حقها ، ويقدرونها ويجعلون شانها أعلى بكثير من شان ما تدعو إليه المذاهب المسيحية التى وقفت عاجزةً فى مواجهة الفكر الدينى الوثنى الذى شاع فى الأوساط الارستقراطية الرومانية ، وبات يشكل تحدياً كبيراً ، وتهديداً سافراً لمصداقية آباء الكنيسة الغربية الذين حاولوا أن يقدموا العلاج لكثير من مشكلات الناس الحياتية فى إطار الأوهام والخرافات التى سادت فى صفوف المجتمعات المسيحية الأوربية فى العصور الوسطى الباكرة مما أوجد حالة من الغموض فى فهم أمور العقيدة .

ولا يختلف اثنان من المؤرخين فى أن "جوليان " كان على قدر عال من الثقافة بفضل دراسته للفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، والنتاج الادبى اليونانى / الرومانى أثناء إقامته الإجبارية فى أثينا حيث اطلع على مؤلفات الأغريق القدامى كما قرأ فى العهد القديم والأناجيل المختلفة ،وتأثر فى نيقوميديا

بالفيلسوف "ليبانيوس"Libanius(٣١٤ - ٣٩٢م) الذى اظهر له فضائل الوثنية الأغريقية على المسيحية ، ومن ثم رأى جوليان أن ثمة علاقة بين النظام الكنسى والنظام العبودى الذى يعوق حركة الإنسان فى عمارة الكون على أسس الحق والعدل والإحسان والمساواة والتى تدعو إليها الأصول المسيحية الباكرة فى حقيقة الأمر ٠

ومن المعروف بين جمهورالباحثين الأوربيين من أمثال بوركهارد Burkhard وبيجانيول Piganiol ، وبالانك Palanque أن الإمبراطور قسطنطين أدرك بثاقب نظره أن الإمبراطورية كانت تعانى حالة من الضعف والتردى فى مختلف جوانب الحياة ، وأن الكنيسة باتت طوق النجاة لها فى بحر مظلم لجىّ وكان حتماً مقضياً عليه أن يتقبل لقب البطل المسيحى معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge سنة ٣١٢م التى انتصر فيها على خصمه اللدود مكسنتوس Maxentiusبفضل شارة الصليب التى وضعها على دروع جنوده ،ومنذ ذلك أدرك قنسطنطين أن "المسيحية" هى الورقة الدينية الرابحة فى مواجهة كافة التحديات والأخطار المحدقة به بإرادته القوية المستمدة من إرادة الرب ٠

ولاشك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، وماتلاه من مجامع مسكونية هو المسئول الأول عن إنتاج مسلسل المذاهب العقيدية المسيحية ، والمراسيم المناهضة للوثنية التوحيدية والاريوسية العقلانية ثم المنوفيزتية (مذهب وحدة طبيعة المسيح) ثم الصراع على الكرسى الرسولى بين الكنائس المختلفة فى روما والقسطنطينية ،والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من مدن الرب ناهيك عن حرق كل الكتابات اللاهوتية المخالفة للأناجيل المعترف بها آنذاك .

ويبدو أن جوليان الذى نشأ وترعرع فى أسرة قسطنطين قد تخلى عن هذه المسيحية بمذاهبها المتعددة قبل أن يتولى منصب الإمبراطورية

ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الإمبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١م حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ليصبح آخر الآباطرة الوثنيين (The Last Polytheist Roman Emperor)، وشرع فى تخليص الوثنية من كل ماتعرضت له من ظلم وقهر على أيدى أنصار الديانة الجديدة التى اعترف بها عمه قسطنطين لتحقيق طموحاته السياسية والعسكرية .

ومن المعروف تاريخيا أن جوليان الذى وُلد فى سنة ٣٣١م ،قد نشأ وتربى فى البلاط الامبراطورى لأسرة قسطنطين ،وتولى أمره فى هذه الفترة يوساب أسقف نيقوميديا ، وشهد فى سنوات عمره الأولى مقتل والده وجميع أقربائه مما جعله يكره قسطنطين الأول وذريته إلى آخر العمر .

والواضح فى روايات جمهور المؤرخين أن جوليان ماكان يهودياً ولا نصرانياً وما كان متعصباً ضد معتنقى هاتين الديانتين بل على العكس فإنه كان يرى فى تعاليم المسيحية السمحاء ما يتمنى أن يراه بين الوثنين أنفسهم كما أنه كان يدعو إلى المساواة بين اليهود والنصارى فى حق العبادة وممارسة الطقوس الدينية فى المعابد والكنائس وهو مايعنى أن جوليان كان بعودته إلى الوثنية يريد أن يكون مجتهداً ومجدداً وباحثاً عن الحقيقة المشتركة بين أصول الديانتين - اليهودية والمسيحية - وهى تكريم الإنسان وإعلاء قيمته فى هذا الوجود بدلاً من أن يتحول إلى ألعوبة آدمية فى أيدى الكهان والأحبار والرهبان وغيرهم .

وهو ما حاول بعض آباء الكنيسة فى القرن الرابع من أمثال أمبروز (٣٤٠- ٣٩٧م) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) أن يتداركوه فى مواجهة الجدل المثار بين جموع المثقفين حول طبيعة الإله ، والعلاقة بين الله والمسيح وغيرها من المسائل اللاهوتية التى تحتاج فكر دينى سوى يستند على منهج علمى وليس إلى تصورات

عاطفية تداعب خيال العامة فى علاقتهم بالمعبود فى مرحلة صارت فيه المسيحية أكثر الديانات جاذبية فى المنظور الشعبى الرومانى.

وفى تصورنا أن جوليان لم يكن مرتداً عن المسيحية بقدر ماكان ثائراً على رجال الكنيسة (الاكليروس) فى جمودهم الفكرى وغطرستهم غير المبررة ثقافياً ، ومثله فى ذلك مثل جمهرة الفلاسفة والمفكرين الذين وجدوا أنفسهم أمام خيارين ، إما أن ينصاعوا لحفنة من الجهلة والمتعصبين تحت مسميات لاهوتية شتى ، وإما أن يبحثوا عن حياة عقيدية تثرى ملكاتهم الذهنية والروحية وهى الحياة التى ارتضاها جوليان وجمع فيها بين روافد الثقافة الرومانية والأغريقية من ناحية والترانيم العبرانية الساحرة الواردة فى التوراة السبعينية من ناحية ثانية ، ثم مبادئ السلام والحب والوئام فى التعاليم التى جاء بها المسيح عليه السلام ، وهى التعاليم الثابتة التى نادى بها الرسل والأنبياء من قبل ومن بعد ، والمؤسسة على رغبة الإنسان الطبيعية فى الاتصال المباشر بالمعبود المقدس" إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى " [1] .

" لقد حان الوقت لكى تفتح المعابد ، وتقدم القرابين على المذابح ، وتعود عبادة الآلهة القديمة "هكذا قال أميانوس الذى عاش فى مرحلة شهدت هجوماً شرساً من المسيحية على الوثنية

---

[1] الأعلى : ١٨ ، ١٩ .

عوامل تطور الفكر العقيدى لجوليان :

والواقع أن " جوليان "تلقى منذ نعومة أظافره قدراً من التعليم الدينى المسيحى ولما بلغ أشده كان يقرأ الكتاب المقدس " الإنجيل " على الشعب فى كنيسة نيقوميديا ،إلا أن قلبه ظل متعلقاً بالوثنية التوحيدية التى رأى فيها من الفضائل العملية مالم يره فى الذين انتسبوا إلى المسيحية زوراً وبهتاناً من أمثال أسرة قنسطنطين ، وبخاصة قسطنطيوس (ت ٣٦١م) المسئول عن مقتل أبيه وأخيه وعدد من أهله مماجعله يربط بين المسيحية وتلك النماذج السيئة من الأباطرة الذين مارسوا كافة أشكال الظلم والاضطهاد تحت ستار الدين .

ومن ناحية أخرى فإن " جوليان " رأى - بفكره - أن الوثنية التوحيدية بجذورها الممتدة عبر العصور الخوالى هى الأسلوب الأمثل لاسترداد سمات الحضارة اليونانية - الرومانية بدلاً من المسيحية التى لم تستطع على مدى ثلاثة قرون أن تقدم حلولاً عملية لمشكلات البشر الدنيوية بل أن آباء الكنيسة من أمثال " بولس " وضعوا دعائم الكنيسة العالمية" الكاثوليكية " على أساس لاهوتى يتصل بالغيبيات كالبعث ،والحساب ، والخلود الأخروى مماحول المسيحية إلى ديانة عاطفية أقبل عليها الفقراء،والضعفاء ،والجهال وأعرض عنها الأثرياء، والأقوياء والعلماء .

ومن المؤكد أن " الديانة " التى أرسل بها عيسى عليه السلام - ليست محلاً للمقارنة بأية ديانة وثنية معاصرة - غرباً أو شرقاً - إذ أن التعاليم التى أتى بها - هى من وحى السماء ولاشك - وليست فلسفة خاصة - من وحى ذاته - إلا أن الخلافات المذهبية الحادة بين الأتباع ومحاولات التوفيق والتبديل بين تلك المذاهب هو الذى احدث شرخاً كبيراً فى البناء العقيدى بعد رحيل المسيح عن هذه الدنيا مخلفاً للبشر

جميعاً قصة حياتية بلغت فى مثاليتها مايفوق تصورات"الأتباع" العقلية فكان تفرقهم واختلافهم من بعد ماجاءهم من البينات والذكر الحكيم فى ظل مناخ دينى وثنى ظهر فى الشرق ، وانتشر صوب الغرب .

وهذا مادفع " جوليان " وغيره من المتعلمين والمثقفين إلى البحث عن مبتغاهم الإيمانى بين أرفف المكتبات الوثنية فى روما وأثينا وغيرهما وأشارت إليه أحدث الدراسات التاريخية الأوربية فى إطار العلاقة بين الفلسفة والدين وهى تلك الدراسات التى تأثرت إلى حد كبير بكتابات " فيلون " السكندرى اليهودى الذى سعى جاهداً للتوفيق بين الايمان بالعهد القديم والتراث الفلسفى اليونانى .

ولعل إخفاق " جوليان" فى تحقيق مايصبو إليه فى مواجهته مع المسيحية يعود - فى تصورنا - إلى غياب المعتقدات الصحيحة فى الديانتين - الوثنية والمسيحية فكلتاهما تعتمدان على طقوس دينية مشتركة اختلطت فيها كتابات الفلاسفة الوثنيين (الرطازات Myths) مع كتابات الفلاسفة اللاهويتين (المدرسانيون) حيث دارت الحوارات فى المجالس الكنسية الكبرى حول أفكار أفلاطون وأرسطو التى اصطبغت بها أفكار البشر آنذاك بل إن جوليان كان يتطلع إلى مؤسسة وثنية على غرار الكنيسة تضم مجموعة من ذوى الرتب الدينية ومجموعة من المستشفيات والجمعيات الخيرية ، والكتب المحرمة .

إذن كان جوليان غير موفق - إلى حد كبير- فى تقديم صياغة صحيحة لديانته الوثنية وبالرغم من تلونها بالديانتين الأخريين - اليهودية - المسيحية - فإنها افتقدت القبول لدى كثير من البشر الباحثين عن فكرة الخلاص ، وتراجعت أمام الأدب الشعبى الكنسى الذى تعزز بالكتاب المقدس الانجازات الحضارية المبهرة التى أحرزها الرومان فى ميادين الأدب والفن والعمارة وغيرها من الانجازات

التى صارت فى أخيلة الناس أثراً بعد عين ومن ثم تكون الحياة معها نوعاً من البكاء على اللبن المسكوب .

وينبغى ألا ينظر إلى موقف جوليان من المسيحية على انه " صراع" بين ديانتين أحدهما وثنية والأخرى سماوية أو أن ينظر إلى جوليان نفسه على أنه " مرتد " ، لماذا؟ لأنه كان يتشكك فى كل شئ ولم يصل إلى اليقين فى أى شئ ، وظل حائراً بينهما إلى آخر عمره !

فالمسالة لا تخرج عن كونها منافسة بشرية بين مدرستين فكريتين وكلتاهما تبحثان عن أعلى نسبة ممكنة من التأييد الشعبى ، ولهذا سعت كل مدرسة إلى التنقيب فى سجلات ودفاتر المدرسة الأخرى المنافسة حتى صار الزهد ،والصوم والتبتل ، والتطهر وغيرها من النسك والطقوس أمور مشتركة بينهما ، بل إن جوليان " الوثنى " كان أحيانا ينتقد الوثنية فى بعض جوانبها ويمتدح أحيانا أخرى المسيحية فى بعض جوانبها وبالتالى فانه لم يكن "مرتداً "ـ كما اصطلح كثير من المؤرخين على ذلك ـ وإنما كان "مجتهداً" يستفتح رؤاه وتكهناته بالتى هى أحسن من الكتب السماوية أو كتبات هوميروس وفرجيل أو غيرها من الكتب الفلسفية .

وبالرغم من أنه حاول الموازنة ـ من حيث الشكل ـ بين المسيحية والوثنية فإنه لم يحد عن فكرة علو كعب رجال الدين الوثنيين على رجال الكنيسة من حيث الامتيازات والرعاية لشئونهم الداخلية ، ورغباتهم الدينية والدنيوية " وأن الوقت قد حان أن يفعل مايحب " .

لقد تشابه جوليان " الوثنى" مع أوغسطين " المسيحى " من حيث الرؤية الوجدانية لسر هذا الوجود، فكلاهما كان يبحث عن "المجهول" ومحاولة الوصول إلى "المطلق" من خلال "المحدود"وهى المعادلة التى عالجها الأخير فى كتابه

الشهير "مدينة الله" Civitas Dei والذى يعقب عليه احد الباحثين الأوربيين بقوله :

" ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب " مدينة الله " الذى وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاداً للتدخل الالهى فى الشئون البشرية أكثر منه فلسفة للتاريخ وألفيناه رؤية وجدية أكثر منه صوغاً تكهنياً للحدود القادمة مستقبلاً للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى على الحقائق المحزنة التى يحتويها زمانه (القرن الرابع الميلادى) بما حواه من وصف لمجتمع مثالى يقوم على مبدأ العدالة الحقة ،فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدنية سرمدية لم تبنها يد"

وهذا الفكر الفلسفى انتهجه جوليان فى بحثه عن حقائق الوجود ، وتفسير الظواهرالطبيعية فى إطار تصوفى بحجة تجميع قوى الوثنية كلها فى مواجهة أعداء هذه المدينة الفاضلة الذين هم أعداء كل الراغبين من البشر فى السكنى بها فى إطار المحبة والإخاء وهى نزعة تأملية حلت محل النزعة الرواقية القديمة ابتداء من أفلاطون وحتى ايامبليكوس Iamblichus الذى وضع الشكل النهائى للرواقية التى اتخذها جوليان منهجاً فى مناهضة المذاهب المسيحية المعاصرة بحيث صارت الوثنية التوحيدية عند جوليان مرادفا للهلينستيه Hellenism أو هى النظير اللاتينى للثقافة الكلاسيكية اليونانية .

والواقع أن "جوليان" قد تأثر إلى حد كبير بالفكر اليهودى والتراث الفلسفى لحضارات بابل والفرس الإغريق المتمثل فى طائفة الغنوصين الذين حاولوا صياغة ديانة مسيحية جديدة تقوم على خلط التعاليم الأصولية للمسيحية بالآراء الميتافيزيقية للفلاسفة الوثنيين واللاهوتيين فى العالم اليونانى والرومانى مما حول المسيحية إلى مذاهب عقيدية شتى تدور فى فلك الصراعات العقيدية الأخرى، وهو ماحاول قنسطنطين الكبير أن يواجهه بفطنته السياسية وطموحه الشخصى

حتى وإن كلفه ذلك الاعتراف الرسمى بالديانة الجديدة والتحول عن روما "الوثنية " على ضفاف التيبر إلى روما "المسيحية "على ضفاف البسفور خاصة بعد أن ازدادت حدة الصراع بين المسيحية والوثنية واستشعر عدم قدرته على إجبار الارستقراطية الرومانية على الدخول فى حظيرة الدين الجديد .

علاقة جوليان باليهودية :

فى الوقت الذى راح فيه جوليان يقلب وجهه فى الذخائر الوثنية ، والديانات الوضعية بحثاً عما كان يعبد أسلافه فى بلاد اليونان والرومان القديمة ، كان يسعى كذلك إلى مخاطبة ود اليهود ومداراتهم فى كافة أنحاء الولايات الرومانية ،موصياً إياهم بالصبر والجلد والثبات على ماهم فيه من بلاء ، واعداً إياهم بغدٍ أفضل للديانة اليهودية ومستقبل مشرق لكل يهود العالم بعد عودته مظفراً من معاركه الشرسة مع الفرس لكى يقدم لهم الدعامة والحماية ويوفى لهم بالنذر فى إعادة بناء معبدهم الميمون فى المدينة المقدسة " أورشليم" ليتباهوا به على سائرالكنائس فى العالم .

ومن المعروف تاريخياً أن " اليهودية " جذبت اهتمام أبناء الطبقة الأرستقراطية على عكس المسيحية وعلى الرغم من أن اليهود لم يقوموا بأى نشاط تبشيرى فإن عدداً من الرومان قد دخلوا فى الديانة اليهودية ، ولكن تمسكهم بها كان ضعيفاً إذ أنها كانت مازالت غامضة فى مفهومها عن " المخلص" و"الخلود " فى الحياة الآخرة وغيرها من المسائل اللاهوتية ، وربما كان سر جاذبية هذه الديانة بالنسبة لجوليان أنها تأثرت إلى حد ما بالتراث الفلسفى اليونانى ، ومن ثم جمعت بين العلم والدين ، بل إن الأدب العبرانى جذب أنظار أبناء الطبقة الارستقراطية

الرومانية ، ومن ثم حاول جوليان أن يوفق بين التراث الفلسفى اليونانى ،والتراث اليهودى المحفوظ فى العهد القديم .

لقد كان جوليان يتطلع إلى استعادة المجد القديم لليهود ومداعبة خيال أحبارهم فى الأرض الموعودة "أورشليم " Jerusalem بدافع من غروره العقيدى القديم ، ورغبة فى انتهاك حرمة الديانة الجديدة " المسيحية " وهو ما يشكل نوعاً من المدارة لأرباب الديانات السماوية المعاصرة ومثلما أوحى للمسيحيين بأنه يعتز بمبادئ وتعاليم ديانتهم فإنه أوحى لليهود باعتزازه وتقديره لصحف موسى عليه السلام ، ومن ثم فإنه أخذ كثيراً من طقوس اليهود وشعائرهم وكان أقرب إليهم - فكرياً - من النصارى ، ولذا قام بعدة إجراءات ساهمت - فى عهده - فى إعلاء شأن اليهود والديانة اليهودية بعد أن كانوا فى ذاكرة الأباطرة الرومان نسياً منسياً وفى ذاكرة النصارى أنهم " أولاد الأفاعى " على تعبير الكتاب المقدس " العهد الجديد "أو الأدناس " كما وصفهم "اميانوس ماركيلينوس" .

وفى تصورنا أن جوليان الذى دغدغ مشاعر اليهود الدينية ، بإقامة معبد كبير لهم فوق جبل موريه ،وإعادة بناء الهيكل القديم - الذى لم يكتمل بسبب وفاته - والتعبير عن اعتزازه بالديانة اليهودية ، وتقديره للتوراة Torah - إحدى مكونات العهد القديم - لم يكن يسعى إلى دعم اليهودية وتعزيزها بقدر ماكان يسعى إلى مواجهة ردود فعلته الشنعاء ،ألا وهى تحوله عن الديانة المسيحية واعتناقه ديانة وثنية تختلط فيها الرؤى والأفكار مماجعله فى حالة من عدم التوازن بين الديانات الوضعية الساحرة ، والديانات السماوية التى باتت - فى القرن الرابع غامضة وشائكة وغير مقنعة فى فكره العقيدى .

وربما يمتد تصورنا إلى ما هو أبعد من ذلك فى الفكر العقيدى لهذا الإمبراطور الحائر ونقول أن جوليان كان يحاول أن يؤسس ديانة جديدة

على غرار الديانات الوضعية المعاصرة ديانة تقوم على فضائل سائر الأديان السماوية ، والوضعية ، وكأنه مثل أسلافه فى بلاد اليونان كان يبحث عن " مدينة فاضلة " - يوتوبيا (Utopia) - تتحد فيها أطلال الحضارة الوثنية القديمة - عند الرومان واليونان - بمآثر الديانتين اليهودية والمسيحية ، وهى المدينة التى تعتمد على منهج أفلاطون (Platonism) الداعى إلى الوحدة الكونية (Cosmology) وهو المنهج الذى اتخذه جوليان فى صراعه مع المسيحية متصورا بذلك أنه سوف يبلغ"اليقين" الذى يبدد شكوكه تجاه الديانات الأخرى وماهو ببالغه ٠

جوليان وصحوة العقيدة فى عصره :

ومع أن كثيراً من الغيورين على الديانة المسيحية - قديماً وحديثاً - تصوروا " جوليان " فى أخيلتهم وكتاباتهم على أنه الإمبراطور الوثنى " المرتد " ، فإن حقائق التاريخ تشير إلى أن هذا " المرتد " - فى نظر الكنسيين - كان عاملاً رئيساً ليس فى صحوة الوثنية فحسب ، ولكن فى صحوة المسيحية الخاملة فى القرن الرابع الذى شهد تطوراً ملموساً فى اللاهوت بفضل ثلة من آباء الكنيسة من أمثال جيروم (٣٣١ - ٤٢٠) وأمبروز(٣٤٠ - ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) وغيرهم من آباء الكنيسة الذين كانوا على معرفة جيدة بالفلسفة الكلاسيكية ، فأفادوا منها فى وضع دراسات لاهوتية تحظى بقبول المتعلمين والمثقفين.

فالقديس أمبروز مثلاً - الذى عاش فى مدينة تريف Terves حيث وجدت بها المدارس والمكتبات ، وقصدها المشاهير من الدارسين ورجال العلم حظى باحترام الأباطرة بسبب نجاحه المتميز فى الدراسات اللاهوتية حتى عرف فى الأوساط العلمية بوصف " خادم جيد للصالح العام " إذ أنه تحول بالمسيحية من لغة الوعظ بين العامة من الفقراء والبسطاء ، إلى لغة الحوار مع الآخر وهو ما نجح فى تحقيقه

فى مناظرته الشهيرة مع الفيلسوف الوثنى " سيماخوس" Symmachus زعيم الارستقراطية الوثنية والتى أكد فيها على حقيقة أن " المسيحية" هى الديانة الحقيقية الوحيدة دون سائر الديانات الأخرى. بينما رأى سيمخاخوس أن ثمة طرقاً كثيرة تقود إلى الله "المعبود الواحد" يختار المرء منها ما يشاء ... ولم لا ؟! ألم ينص مرسوم ميلانو على حرية اختيار العقيدة ، وحرية اختيار المقدسات ؟ •

"Christians and all other men given the Free right of Following the religion which they wished" ويبدو أن الظروف السياسية كانت فى صالح الصياغة الفكرية لأمبروز إذ أن فكرة الربط بين "الحرية" و"الطاعة "للسيد المسيح كانت تسير على التوازى مع فكرة الحرية وطاعة الإمبراطور أو مايمكن أن نضعها فى إطار الصياغة العلمانية لمذهب امبروز المستمد من رأى القديس بولس القائل بان الحرية الحقيقية تتمثل فى طاعة اليسوع ، وهو مايعنى التصريح للأباطرة بشن حرب ضارية ضد الوثنيين وحرمانهم من ممارسة طقوسهم بشتى الطرق وهى النظرية التى تحولت فيما بعد ضد الآباطرة أنفسهم بمعنى أن الكنيسة حاولت فى أعقاب وفاة جوليان أن تقمع كل مظاهر الفكر الحر بمعاونة الآباطرة الذين استمرأوا فهم الحرية فى اطار " طاعة الدولة " .

ويبدو أن جوليان لم يكشف عن طويته تجاه المسيحية دفعة واحدة بل تدرج فى التعبير عن موقفه منهم بطرق وأساليب مختلفة بدأها بإصدار مرسوم تضمن منح كل سكان العالم الرومانى حرية العقيدة ، وممارسة الطقوس الدينية فى إطار المحبة والسلام،والتسامح وغيرها من القيم الإنسانية النبيلة التى قامت عليها دعوة المسيح عليه السلام وبالتالى يكون من حق الوثنيين التمتع بهذه القيم ، وتجريم

المسيحيين الذين يضطهدونهم في عقائدهم ويخالفون بذلك تعاليم يسوع : " طوبى للرحماء ٠٠٠٠ طوبى لصانعي السلام "[١] .

ولقد فتح جوليان بذلك أبواب الجدل الديني على مصراعيها بين كافة الطوائف والمذاهب المسيحية ، وبخاصة الجدل المثار حول طبيعة المسيح بين الأريوسيين من ناحية والنيقيين من ناحية أخرى ، وربما كان هدفه من وراء ذلك هو زيادة الفرقة والانقسام بين هذه الطوائف المسيحية بغرض إضعافهم وتشتيت شملهم ، والحط من هيبة رجال الكنيسة على تباين درجاتهم الوظيفية في منظور الطبقات الشعبية ، لكي يفسح المجال أمام الفلاسفة الوثنيين في نشر أفكارهم وأرائهم العقيدية ، وبذلك تعود الكنيسة إلى حالتها البدائية في غضون سنوات قليلة ، ويعود رجال الدين المسيحي إلى أوضاعهم الأولى مخلفين من بعدهم خلف من المتعصبين والجهال الذين لا يقدرون على شئ في مواجهة الفكر الوثني المتميز .

ولم يقتصر الأمر على رجال الدين المسيحي بل امتد ليشمل جميع المسيحيين المدنيين والعسكريين الذين حُرموا من وظائفهم في الدولة والجيش كما مُنعوا من السفر والترحال كيلا يقومون بأعمال التبشير، فضلاً عن إلزام المسئولين عن مصادرة أراضي الوثنيين أو بناء كنائس عليها بدفع تعويضات ومن يعجز عن دفع التعويض ، فانه يصبح رهيناً للدائن يقتص منه كيفما شاء مثلما حدث مع الأسقف مرقص الذى هدم احد المعابد الوثنية ، ولم يستطع أن يدفع التعويض المالي فكان عليه أن يلقى جزاء ذلك التعذيب بطريقة قاسية ، حتى عفا عنه جوليان وأطلق سراحه دون أن يهدأ له بالاً في البحث عن وسائل تحط من شان المسيحيين الذين قابلوا طموحه الفكري بالصمت المطبق والسخرية

---

[١] متى : الإصحاح الخامس ، ٥ – ١٠ .

اللاذعـة حتـى صـارت مناهـضته للمـسيحية نوعـاً مـن البكـاء علـى أطـلال وثنيـة ينعق فيها البوم بل أن آخر المؤرخين الوثنيين (زوسيموس) عزى سقوط "رومـا " سنة ٤١٠ إلـى غـضب الآلهـة بـسبب تحـول الرومـان إلـى المـسيحية أو بـالأحرى بسبب تحـولهم عـن الفـضائل الأربعـة التـى اجتمعـت فـى جوليـان وهـى : الانـضباط والحكمـة ، والعـدل ، والـشجاعة أو كمـا قـال اميـانوس فـى تحليلـه لشخـصية هذا الإمبراطور الفيلسوف .

والخلاصـة أن هللنـستية جوليـان لـم تـستطع أن تـصمد فـى مواجهـة التيـار الجارف للمسيحية فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، باعتبارهـا المـصدر القوى فى مواجهة " الرطازات" **Myths** وقصص الآلهـة القديمـة التـى لـم يعد لهـا قبول لدى جمهور المتدينين على عكس المسيحية التى توارت أمامها سائر العبادات الأخـرى معتمـدة فـى ذلـك علـى الكتـاب المقـدس الـذى أتـاح للنـاس فرصـة الخـلاص والهروب فى مواجهة كثير من مشكلاتهم الحياتية وهو مـا حاولـت الوثنيـة أن تقدمـه لهم فى مراحلها المتأخرة ، وتأثرت به المسيحية فى إطار مذاهبها العقيدية المتباينـة عندما أصبحت ذات سمة فلسفية .

وغيـر خـاف علـى أى باحـث فـى مجـال العـصور الوسـطى أن الانجـازات التى أحرزها الرومان بما فيها من أمور عقيدية لم تكن وليدة الفكر الرومـانى الـذاتى ، بـل كانـت مقتبـسات مـن نتـاج الفكـر اليونـانى القـديم فـى مختلـف الميـادين (الدين ـ الأدب ـ الفن ـ العمـارة ، ٠٠٠٠٠٠الـخ)إذ أن الرومـان لـم يكونـوا عن قـدر عظيم من الإبداع ومن ثم فإن محاولة إحياء الفكر الدينى الـوثنى من جانـب جوليـان كانـت نوعـاً مـن الـنفخ فـى الرمـاد فـى وقـت كانـت فيـه ديانـة سـماوية جديـدة تشع بأضوائها الباهرة فى عالم العصور الوسطى الباكرة .

وفى هذا المعنى يقول المؤرخ الرومانى بيورى J.Bury :

" لم يبتكر رومان الإمبراطورية شيئاً ، وليس من الغلو فى شئ أن نقول ،أن الصفة الغالبة على العالم الرومانى من عهد أوغسطس حتى سقوط اوغسطولوس(٤٧٦م) هى الافتقار إلى الأفكار والعجز عن التفكير الجاد العميق وفرط التوقير للمراجع المعتمدة " .

لقد كان جوليان أثناء محاولته إعادة الديانة الوثنية والعبادات الأولى بنوع من التصرف والاجتهاد ـ يهدف فى الحقيقة إلى تأسيس " مسيحية" جديدة يختلط فيها" نتاج العقل " مع " نتاج الروح " ولم يدر حينئذ انه يسبح ضد التيار الكنسى الجارف بكل ما فيه من عوائق ومفارقات يصعب معها الاستمرار فى مصارعة الأمواج المذهبية العاتية التى لم تلق بالاً لملكة الاستدلال العقلى وزمن الفكر الجميل الذى كان يسعى إليه جوليان ولكن عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء ، فما كان جوليان يهوديا ولا نصرانيا ، وإنما شئ آخر حاول أن يجده بعقله وروحه معاً ! على أن أهم مافرزته تلك الفترة التاريخية القصيرة من حكم جوليان (٣٦١ـ ٣٦٣ م) هو عجز الكنيسة الغربية عن كسب تأييد الأباطرة الرومان فى وئد بقايا الوثنية وذلك على مدار العقود التالية وحتى نهاية حكم أسرة قسطنطين فى نهاية القرن الرابع الميلادى .

لقد مات جوليان جريحاً ، ولفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مناقشته الرفيعة مع بعض الحكماء حول " طبيعة الروح ".

قائمة المصادر

والمراجع العربية والأجنبية

* القرآن الكريم

* الكتاب المقدس

المصادر العربية :

ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣م)

ـ الكامل فى التاريخ (دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ /٢٠٠٢م)

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ، ٣١٠هـ / ٩٢٢م)

ـ تاريخ الدول والملوك المعروف بـ " تاريخ الطبرى "

(دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣م)

المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م)

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر " ٤ أجزاء "

(المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ /٢٠٠٥م)

مؤلف مجهول: تاريخ القسطنطينية،تحقيق وتعليق، د.طارق منصور تقديم د. زبيدة عطا

(مصر العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٨م)

ياقوت الحموى(شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)

ـ معجم البلدان " ٥ أجزاء "

(دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٤١٧هـ /١٩٩٧ م)

المراجع العربية :

ادوارد جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد على درة

(دار الكتاب العربى ، القاهرة ، د٠ت)

د٠حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى

(معهد الدراسات والبحوث العربية ، القاهرة ،١٩٧١م)

د٠رأفت عبد الحميد محمد :الدولة والكنيسة

(دار المعارف ،القاهرة ،١٩٨٢م) " الجزءان الثانى والثالث"

د٠زكى شنودة : تاريخ الأقباط (جمعية التوفيق القبطية ، القاهرة ، ١٩٦٢م)

د٠سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى " جزءان "

(مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ط ١٠ ، ١٩٨٦م)

د٠سعيد مراد : تاريخ الأثيان (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٠م)
د٠شعبان عبد العزيز خليفة : مجموعة الببليوجرافيا التاريخية ــ الكتب والمكتبات
في العصور القديمة (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٧)
مجموعة من الباحثين : الموسوعة العربية الإسلامية (دار الشعب ، القاهرة ، د٠ت)
د٠ محمد خليفة حسن : مدخل إلى أسفار العهد القديم (القاهرة ،١٩٩٦م)
المورد (قاموس انجليزى /عربى ، بيروت ط ١٨ ، ١٩٨٤م)
موس : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة د٠عبد العزيز جاويد
(الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨م)
نورمان كانتور : التاريخ الوسيط " جزءان " ترجمة وتعليق ٠د/ قاسم عبده قاسم
(دار عين ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠١م)

المصادر والمراجع الأجنبية :

Ammianus Marcellinus :

- The Later Roman Empire (A-D.354-378) Selected and

Translated by

Walter Hamilton Withe an Introduction and Notes by Andrew
Wallce – Hadrill England , 1986 .

Atia (A.S.) :

- A History of Eastern Christianity , London, 1968.

Baynes N.H.:

- Constantine and the Christian Church .

Bower sock, Glen Warren," Julian the Apostate, London (1978).

Brown (p.R .):

- Religion and society in the Age of st. Augustine , London 1972.

Browning, Robert, The Emperor" Julian, London (1975).

Burekhard (J) :

–The Age of Constantine the great , New York ,1949.

Bury(J.B.) :

-History of the later Roman Empire , New York ,1957.

David (K)

-The evolution of the Medieval though, Hong Kong, 1976.

David S Potter The Roman Empire at Bay AD(180-395) Routledgė New York, 2004.

Eusebius , Bishop of casearea :

- Eccleesiastical History , Grand Rapids : Baker Books ,1974.

Jones : (A.H.M) :

- Constantine and the Coversion of Europe , London 1948.

Kasem ,A.K:

- Historical texts in Medieval Civilization (Mansour University 2008).

Lensxi ,Noel Emmanuel Failure of Empire : Valens and the Roman State in the Centry AD, UC Press, London (2003).

Ostrogorsky .G :

- History the Byzantine State – New Brunswick N.J.Rutgers University press.1957.

Painter (S.) :

- History of the Middle Ages, London 1948.

Roberts,Walter E and Michal Dimaio" Julian the Apostate 360-363 A.D)" De Imperatoribns Romanis(2002).

Rosen,Klaus, Julian Kaiser, Cottind Christenhasser,Klett ,Cotta Stuttgart (2006).

Smith Rowland :

- Julian's ,gods : Religion and Philosophy in the thought and action of Julian the Apostate , London ,1995.

Thompson(J.W.) :

- History of the Middle Ages,300- 1500 London 1931.

Vasiliev(A.A) :

- A History of the Byzantine Empire, Madison & Mitwauke,1964.

<u>English Sites:</u> **<u>المواقع على الأنترنت</u>**

1. **http://en .wikipedia .org/ wiki/julian-the-Apostate.**
2. **http://www.roman-empire.net/collapse/ julian-index.html**
3. **http://www.geocities.com/athens/parthenon/7094// julian.html**
4. **http://ancienthistory.about.com/od/julian/a/julianapostate. html**
5. **http://www.theosophy-nw.org/theosnw/world/med/me-mclk.html**
6. **http://www.Fordham.edu/halsall/ancient/ julian-mispogen.html**
7. **http://www.Sacred-texts.Com/Cla/toj/**
8. **http://www. roman-emperors.org/ julian.html**
9. **http://www. / juliansociety.org/**
10. **http://roman-history.suite101.com/article.cfm/julian-the-apostate.**
11. **http:// emperor julian.com/**
12. **http://www.Library.Flawlesslogic.com/ julian-1.html**
13. **http://www.Clasclifton.com/review/ julian.html**

مرسوم الإملاء البابوى(١٠٧٥م) وخطبة مجمع كليرمون(١٠٩٥م)

" دعوة لحرب صليبية عالمية "

(قراءة فى النص)

ثمة جدل شديد بين المؤرخين حول دور البابا الكاثوليكى جريجوري السابع Geregory-VII (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) فى وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية التى دعا إليها أربان الثانى Urban II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م فى خطبته الشهيرة التى ألقاها عقيب انقضاء المجمع الكنسى الذى عقد بكليرمون (Clermont) فى جنوب فرنسا ، وهى الخطبة التى شاهدها ، واستمع إليها جمهور غفير من الفرنسيين تقدمه عدد غير قليل من الأساقفة ، والرهبان ، والسادة الإقطاعيين ناهيك عن الفرسان والعامة الذين عبّروا عن تأييدهم لهذه الدعوة بصيحة مدوية تقول Deus Vult أى "الرب يريد" هذه الحرب المقدسة Guerre Sainte .

والحقيقة أن جريجورى السابع (هيلد براند) كان قد اقترح تشكيل حملة عسكرية تحت قيادة البابوية تكون وجهتها " القسطنطينية " Constantnople لمواجهة الأتراك السلاجقة بعد الهزيمة الساحقة التى ألحقوها بالقوات البيزنطية فى معركة مانزكرت(ملازكرد) ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١م الأمر الذى دعا الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius-Comnenus (١٠٨١ــ ١١١٨م) إلى طلب الغوث من عدوه جريجورى السابع وجاءت هذه الاستغاثة على هوى البابا الذى وجد فيها تطبيقاً عملياً لنظريته الثورية "الإملاء البابوى " Dictatus papae التى تنادى فى مضمونها بسمو السلطة البابوية على سلطة الأباطرة والملوك فى العالم بأسره .

بمعنى أن البابا جريجورى السابع حاول أن يجعل من استغاثة الإمبراطور البيزنطى فرصة ذهبية عاجلة تفيد منها البابوية أيما فائدة لتحقيق سيادة الكنيسة الكاثوليكية على العالم المسيحى اللاتينى والبيزنطى فى آن واحد بمقتضى السلطة المخولة للبابا من الله باعتباره نائباً للمسيح على الأرض لتتحقق مقولة المسيح لبطرس الرسول :

" طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات " .

وحقيقة الأمر أن أراضى الإمبراطورية البيزنطية كانت تدخل ضمن بنود المشروع الصليبى الاستعمارى فى الشرق إلا أن التفاوت الكبير فى المستوى الحضارى بين الغرب اللاتينى وبيزنطة أوجد حالة من التوجس والخيفة لدى البابا الكاثوليكى وأمراء الحملة الصليبية الذين كانت أطماعهم الشخصية فى الإمبراطورية البيزنطية تختمر فى أذهانهم .

ويبدو أن الصراع البابوى - القيصرى ، ومشكلة التقليد العلمانى حالت دون إعداد حملة صليبية فى أى اتجاه من العالم الشرقى فى غضون سنوات ولاية البابا جريجورى السابع ليورث تركته من الحقد والكراهية للمسلمين للبابا أربان الثانى الذى كان أكثر اعتدالاً وفطنة فى سياسته تجاه الملوك ولكنه لم يكن أقل من سلفه شهوة للدعوة الصليبية التى خرجت إلى حيز التنفيذ فى خريف سنة ١٠٩٦م .

كذلك فإن الأحداث التى جرت فى كانوسا شتاء سنة ١٠٧٧م تمثل نتائج مواجهة عصيبة بين البابوية والسلطة الزمنية فى ألمانيا،إذ مكث الإمبراطور هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦م) ثلاثة أيام وسط الجليد لتقديم فروض الطاعة والولاء والتوسلات إلى البابا جريجورى السابع لعله يتوب عليه ويمنحه العفو الذى كان هنرى فى أشد الحاجة إليه لكى يحتفظ بعرشه حتى وإن كلفه ذلك تقبيل قدمى البابا وإبداء الندم على غلطته فى حق سيده " جريجورى " حالفاً

بـأغلظ الأيمـان أن يكـون خادمـاً مخلـصاً للبابويـة وهـو مـا لـم يـستطع عليـه صبراً سوى سنة واحدة ليطبق عليه البابا أحد بنود الإملاء البابوى وهو :

That he ought to be allowed to depose Emperors .

" إنه (البابا) يُسمح له بعزل الأباطرة " .

ويبدو أن عزل البابا جريجورى السابع للإمبراطـور الألمـانى هنرى الرابع فى سنة ١٠٧٧م كان رسالة تهديد صريحة لكل من تسول له نفسه من ملوك غرب أوربـا أن يزعم بعلـو هامتـه وسلطاته علـى هامـة وسلطان البابـا الـذى يحكم بإرادة الرب"يسوع المسيح" وكان عليهم أن يدركوا أن جريجورى السابع قد عقد العزم على تنفيذ برنامجه الثورى الذى أعلنه بوضوح شديد يحسد عليـه فـى كتابـه الـشهير الإمـلاء البـابوى **Dictatus papae** بعيـد ارتقانـه العـرش البـابوى وبالتحديـد فى سنة ١٠٧٥م ، بل إن قرارات البابا كانت أكثر فى شدتها وقسوتها مما هو معلن فى هذا البيان من معطيات قانونية تعلو بالبابويـة إلـى أعلـى درجات التفوق والسمو على كافة النظم العلمانية الحاكمة فى الغرب الأوربى آنذاك .

ومـن يقـرأ رسـالة الإمبراطـور هنـرى الرابـع إلـى البابـا جريجورى السابع فى العام السابق لقرارعزلـه(سنة١٠٧٦م) يـدرك حجم الغصة والمرارة فـى نفـوس حكام أوربا بعيد أحداث كانوسا فبعدأن كـان هـؤلاء الحكـام لا يـسمحون للبابا بالتدخل فى شئون الحكم والسياسة،صاروا يتوسلون إلـى البابـا نفسه كـى يكونـوا عنـد حسن ظنـه بهم، وأفسحوا أمامـه الطريق طوعـاً أو كرهـاً ـ لكـى يمكن لنفسه فـى الأرض؛ يـأمر وينهـى كيفمـا شـاء ، ويعقد المعاهدات والمحالفـات السياسية ويصدر قـرارات الحرب والسلام ،مثلما حدث بين البابا والكونتيسة ماتيلدا دوقة تسكانيا ، وبين البابا والنورمـان فـى صـقلية وجنـوب ايطاليـا الـذين قـدموا إقطاعيـاتهم للبابويـة

ليصبحوا أفصالاً Vassals للبابا ويصبح البابا سيداً إقطاعياً فى مملكة الأرض التى هى ليست مملكة المسيح .

فأين ما حدث بالفعل من كلمات هنرى الرابع إلى " الراهب الزائف " جريجورى السابع (هيلد براند) والتى كانت أشبه بصرخة أسد جريح :" من هنرى الملك إلى هيلد براند الراهب الزائف وليس البابا أخطأت إذا تصورت أن تواضعنا ضعفاً وتجرأت فى مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التى أودعنا الله إياها ... وهددت بتجريدنا منها ، وكأننا تسلمناها منك وكأن الإمبراطورية والمملكة معقودة بإرادتك وليس بإرادة الله ، ولتعلم أن الرب يسوع قد دعانا لحكم الإمبراطورية لكنه لم يدعك أبداً لتتسلط على الكنيسة .

ولأن هذه الرسالة تحمل فى مضمونها ازدراء للبابا فى شخصه فإن البابا أبى إلا أن يسقط هذا الازدراء الصريح على كنيسة الرب،وعلى بطرس - أمير الرسل - الذى منحه " سلطة الحل والعقد " ومن ثم تكون عقوبة الحرمان البابوى جزاءً وفاقاً على هذا الإمبراطور المارق الذى " احتقر المسيحية وتعالى على طاعتها " .

ومن استقراء الروايات حول الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية نلاحظ أن الدعوة الصليبية التى تمحورت حول عدة أهداف قد توارت خلف هدف ظاهرى هو استعادة القدس من المسلمين "الوثنيين" ، وكان من أهم هذه الأهداف غير المعلنة هو "وحدة العالم المسيحى" بمعنى أن يكون المسيحيون جميعا كاثوليك وهذا يفسر سبب توجيه الدعوة أولاً إلى جنس الفرنج دون سائر الأجناس الأخرى فى الغرب الأوربى .

وكذلك حرص البابا إربان الثانى أن يستهل خطبته الثورية بنفس الطريقة التى استهل بها سلفه - البابا جريجورى السابع - كتابه"الإملاء البابوى" بوصفه البابا الأوحد للعالم المسيحى .

ويروى لنا فوشيه الشارترى أن"إربان" بدأ خطابه فى المجمع المسكونى- الذى عقد فى أوفرينى بكليرمون وحضره ما يزيد على ثلاثمائة أسقف ومقدمى أديرة - بقوله :"أيها الأخوة الأحباء ... يا خدم الله فى هذه الديار، لقد آتيتكم أنا ، إربان ، الحبر الأعظم ، حبر العالم أجمع بإذن من الله " .

بينما تذكر لنا وثيقة الإملاء البابوى التى نشرها جريجورى السابع قبل عشرين سنة من خطبة إربان الثانى ما يبدو أساساً أيديولوجياً للدعوة البابوية للحملة الصليبية سنة ١٠٩٥م .

تقول البنود الأولى فى الوثيقة :

- إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده .

That the Roman Church was Found by God Alone .

- إن البابا الرومانى (الكاثوليكى) هو وحده الذى يمكن ان يوصف بأنه عالمى بحق .

That the Roman Pontiff alone can by Right be Called Universal.

- إن اسم البابا (الكاثوليكى) هو الاسم الوحيد فى العالم .

That his name is unique in the World .

وهكذا تأثر إربان فى دعوته الصليبية بسلفه جريجورى السابع فى النزوع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية التى تسمو على سلطة ملوك أوربا العلمانيين مثلما " تسمو الروح فى السماء على الجسد فى الارض ".

وإلى جانب الهدف الرئيسى للحملة الصليبية الأولى وهو إعادة توحيد العالم المسيحى كانت هناك أهداف أخرى تتصل بهيبة البابوية والمناصب الكنسية الأخرى وخضوع الملكية لسلطة البابا وغير ذلك من الأمور التى تدور حول العلاقة

بين الدولة والكنيسة والتى وضع قواعدها جريجورى السابع فى مرسوم الإملاء البابوى وسار على أثرها إربان الثانى الذى توافق فى فكره السياسى مع سلفه إذ تصوروا الحملة الصليبية المرتقبة سوف تؤتى أكلها كل حين بإذن البابوية وأنه عما قريب سوف ينتهى الشقاق الحاد بين الكنيسة الغربية (الكاثوليكية) والكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) وكان أن حاول أن يخضع الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا لسيطرة البابوية إلا أن محاولته باءت بالفشل بسبب النزاع الفيليوكى **Filioque Controvresy** ، أى طبيعة العلاقة بين الأب والابن والروح القدس .

وتبدو هذه الأهداف واضحة فى خطبة إربان الثانى التى تأثر فيها إلى حد كبير بما جاء فى بنود الإملاء البابوى **Dictatus papae** والتى من بينها :

- انه من حقه وحده أن يستخدم الشارات الإمبراطورية .

That he alone may use the imperial insignia.

- انه يجب على الأمراء تقبيل قدمى البابا وحده .

That all princes should kiss the Feet of the pope alone .

- أن الكنيسة الرومانية لم تخطئ أبداً ولن تخطئ أبداً بشهادة الكتاب المقدس

That the Roman Church has never erred , nor as seripture proclaims, will it err through all eteraity .

وثمة مقولة وردت فى دعوة البابا إربان الثانى تكشف عن مبلغ تأثره بالفكر الجريجورى الذى تغلغل فى كل أقواله للشعب المسيحى:"صونوا حرية الكنيسة بكل مراتبها من القوى الدنيوية" ومن المعروف أن أربان فى دعوته كان حريصا على تثبيت هيبة السلطة البابوية، والكنيسة الشرقية فى نفوس السادة الإقطاعيين والفرسان الفرنسيين بإيحاءات مستمدة من تعاليم جريجورى السابع

فى الإملاء البابوى والتى يؤكد فيها على سلطة البابا الروحية بقوله : انى امنح (الغفران) ذلك لكل من يذهب مستمداً القوة من السلطة التى وضعها الله فىَ " .

وفى تصورنا أن الدعوة الصليبية اعتمدت فى ظاهرها على النصوص المقدسة ولكنها فى باطنها أساءت إلى تلك النصوص أو بمعنى آخر حمّلت هذه النصوص ما لم ينزل الله به من سلطان ، بل إن الباحث المدقق يلاحظ أن أهداف البابوية من الدعوة إلى حملة صليبية توارت على استحياء خلف "هبة بطرس" وليس "هبة قسطنطين" (Donatio Constantini) والتى جعلت الكنيسة اللاتينية فى عليين على سائر كنائس العالم ، وجعلت البابا نائباً للمسيح ناطقاً بلسان "بطرس الرسول" ، ومهيمناً على الأباطرة والملوك والأمراء ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ولا راد لأمره ، ومن يعص أمره فسوف يلقى آثاماً ، ويدعو ثبوراً كثيراً مثلما حدث فى أحد المجامع المسكونية سنة ١٠٨٠م عندما أعلن جريجورى السابع بلسان القديس بطرس : " ألا فليدرك العالم اجمع أنه إذا كان بمقدوركم سلطة الربط والحل فى السماء ، فإنكم على الأرض قادرون على أن تعطوا من تشاءون وتنزعونه ممن تشاءون " .

بل هو يعتقد أن الكنيسة الرومانية " لا تخطئ أبداً " ويشهد على ذلك الكتاب المقدس " ... وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماوات ".

وبموجب هذا يقول جريجورى السابع فى مرسوم عزل هنرى الرابع :

" يا بطرس المقدس .....

"باسم الرب العظيم والأب والابن والروح القدس ، وبفضل القوة والسلطة اسحب صلاحيات الحكم فى كل مملكة الألمان وفى ايطاليا من هنرى الملك ابن هنرى الإمبراطور ،......"

وهكذا فعل إربان الثانى فى دعوته الصليبية إذ حاول ان يمزج " النظرية البطرسية" "بالنظرية الثيوقراطية " مع أن بطرس لم يكن ملكاً أو إمبراطوراً ، ولم يكن يوماً صاحب نظرية سياسية مما يجعل هذه المقولات وغيرها محل تساؤل ومثار شك فى كل ما صدر عن البابوية الكاثوليكية من تعاليم وإملاءات اتسمت فى مجملها بروح الجهل والتعصب ، والتى بدت آثارها السلبية واضحة فى كتابات المؤرخين المعاصرين من الرهبان أمثال روبير الراهب ، والمؤرخ المجهول وجيوبرت النوجنتى وبلدريك الدوللى وغيرهم .

وهذا التاثير الجريجورى فى الدعوة يبدو واضحاً فى عدة أمور نذكرها على النحو التالى : الأمر الأول : أن مجمع كليرمون الذى عقد فى سنة ١٠٩٥م كان أشبه بمجلس حرب وأن البابا أربان الثانى رأس هذا المجمع بوصفه زعيماً سياسياً أو قائداً عسكرياً يدل على ذلك أن البابا حضر إلى هذا المجلس وفى ذهنه أن يلتقى بكبار السادة الإقطاعيين فى المناطق المختلفة دون غيرهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى ، بل انه قبيل وصوله إلى كليرمون كان يعلم بالفعل أن واحداً على الأقل من كبار الأمراء الفرنسيين وهو ريمون الصانجيلى Raymond of Stgiles كونت تولوز سوف يحمل شارة الصليب ومعه مجموعة أخرى من الأمراء الإقطاعيين من أمثال روبير كورتوز Robert Chrthose دوق نورماندى وجودفرى دوق اللورين وغيرهم من السادة الإقطاعيين الفرنسيين .
الأمر الثانى : أن البابا إربان الثانى " حاكم روما "حسب تعبير المؤرخ المعاصر فوشيه الشارترى جمع الأساقفة وعددهم ٣١٠ للتشاور أساساً حول قرار "إعلان حرب" ضد " شعب متوحش" من الأتراك الذين احتلوا المناطق الداخلية من الأراضى البيزنطية مثلما هو معلن فى خطبته البليغة إلى الجموع المحتشدة

فـى سـاحة أوفرينـى بكليرمـون ، ومثلمـا كـان يخطـط سـلفه جريجـورى لـشن حملـة صـليبية ، إلا أن كليهمـا كـان يفكـران فـى شـئ واحـد وهـو خـضوع الكنيـسة الـشرقية البيزنطية للكنيسة الغربية اللاتينية وهو ما يشير إليه فوشيه الشارتري بقوله :

" عندما سمع أربان أن الأتراك قد احتلوا المناطق الداخلية من أراضى بيزنطية ،وأن المـسيحيين خـضعوا لـشعب متـوحش هدام ، هزتـه مـشاعر التقـى والـورع ، واجتـاز مدفوعاً بمحبة الله الجبال هابطاً إلى أراضى فرنسا ... وفى اليوم المحدد التأم الجمـع حـول البابـا إربـان فـألقى فـيهم خطابـاً بليغـاً تنـاول فيـه الغـرض الـذى دعـا مـن اجلـه وبصوت مفعم بالأسى أخبرهم عن عذاب الكنيسة وألقى موعظة بليغة عن العواصف الهوجاء التى تجتاح العالم الذى انحط فيه مستوى الديانة المسيحية.

الأمر الثالث: أن الجيوش الإقطاعيـة الفرنـسية كانـت هـى المعنيـة ـ عن عمـد ـ من جانـب البابـا بالـدعوة الـصليبية دون غيرهـا مـن الجيـوش الأوربيـة ممـا يكـشف عـن عنـصرية الـدعوة منـذ البدايـة ـ فمـا أن غربـت شـمس القـرن الحـادى عـشر حتى كانت حدود الدوقيات والكونتيـات الفرنـسية قد صـارت حـدوداً ثابتـة ونـشأ نـوع مـن التـوازن البـدائى بينـهـا ، ومـن ثـم لـم يكـن هنـاك فرصـة بديلـة لـدى كبـار الـسادة الإقطاعيين الفرنسيين للغزو داخل أراضى الوطن مما جعلهم يتوقون إلى تحقيق ذلك خارج فرنسا ، كما أن تزايد عدد الفرسان الفرنسيين الذين لا يملكون أراضـى أغـرى أربـان الثـانى بـأن يـداعب خيـالهم بأراضـى الـشرق " التـى تفـيض بـاللبن والعسل" بل إن البابا عين أسقفاً فرنسياً "أديمار لابوى" ليكون قائداً اسمياً للحملـة المرتقبـة وكان أديمار مقرباً من جريجورى السابع ومواليـاً لفكره الكولونـى .

الأمر الرابـع : أن مـا فعلـه إربـان الثـانى فـى مجمـع كليرمـون كـان سـابقة فـى تـاريخ المجامع المسكونية إذ سمح فى الجلسة الأخيرة للعلمـانيين أن يـستمعوا إلـى دعوتـه الصليبية التـى أطلقهـا علـى خلفيـة حركـة الإصـلاح الجريجـورى ضـد الفـساد الـداخلى

والأعداء المسلمين فى الشرق الإسلامى ويذكر لنا فوشيه وغيره من المؤرخين الذين شاهدوا واستمعوا لخطبة إربان الثانى أنه فور انتهاء البابا من خطبته تقدم العديد من السادة الإقطاعيين والفرسان لأخذ شارة الصليب ومزقت العباءات الحمراء إلى شرائط خيطت على هيئة صلبان لتوضع فوق صدور الفرسان الفرنسيين " الفرنجة " .

الأمر الخامس: أن هذه الدعوة الصليبية التى أعلن عنها إربان جاءت ضربة قاصمة للملوك والأباطرة الألمان الذين حرموا من الاشتراك فى هذه الحملة أو الدعوة إليها خاصة أن البابا كان يعلم سلفاً أن الألمان لن يلبوا دعوته بعد أن أعلنوا حالة العصيان المدنى لكل ما يصدر عن البابوية من مراسيم وقرارات تمثل تدخلاً فى شئون الحكم العلمانى ، بل إن هؤلاء الحكام الألمان كشفوا فى زمن إربان وسلفه جريجورى عن زيف الدعوة الصليبية واعتبروها نوعاً من " العنف تحت رداء الدين "وهى مضمون السياسة التى انتهجها جريجورى السابع وتتبع آثارها إربان الثانى باسم الديانة المسيحية الكاثوليكية.

" يا له من عار إذا ما قام جنس مثل هذا - المسلمين - خسيس منحل تستعبده الشياطين بالتغلب على شعب يتحلى بالإيمان بالرب العظيم ويزهو ويتألق باسم المسيح ، يا لها من تهم ستوجه إليكم من الرب إذا لم تساعدوا - المسيحيين الشرقيين - أولئك الذين يعدون مثلكم من أتباع الديانة المسيحية .

وكى نتبين حجم التناقض فى الفكر البابوى الصليبى علينا أن نقرأ ما جاء فى خطاب زعماء الحملة الصليبية الأولى فى ١٠٩٨/٩/١١م بعد سقوط أنطاكية والذين يصفون فيه المسيحيين الشرقيين بأنهم " هراقطة " وأن البابا بقوته وسلطانه يستطيع "تدمير كل الهرطقات والقضاء عليها" !

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى طبيعة العلاقة بين بعض بنود الإملاء البابوى والتشكيل القيادى للحملة الصليبية الأولى ، ذلك التشكيل الذى تأسس على فكرة الحرب المقدسة Guerre Sainte التى نادى بها جريجورى السابع لتبرير فكرة الحرب ضد المسلمين ، ومن ثم كان لزاماً على إربان الثانى فى دعوته أن يضفى هذه الفكرة الجريجورية على الحملة العسكرية المرتقبة بحيث يصبح المشاركون فيها هم " جنود المسيح " وأن " كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له كل خطاياه " ، وأن تسند قيادة هذا الجيش لمندوب البابا الذى يسمو فى درجته الكنسية - بموجب ذلك - على جميع الأساقفة فى أنحاء العالم فضلاً عن حرمان حكام الغرب الأوربى الذين صدرت ضدهم قرارات الحرمان من المشاركة فى هذه الحرب المقدسة التى دعا إليها البابا باسم المسيح تصديقاً لما ورد فى الإملاء البابوى :

" انه بين أشياء أخرى لا ينبغى لنا أن نبقى فى المنزل نفسه مع أولئك الذين أصدر البابا قرار الحرمان ضدهم " .

وفى هذا المعنى يكتب المؤرخ المجهول :

" كانت هناك حركة هائلة تعتمل فى قلوب الناس فى شتى أنحاء الأرض الفرنجية بحيث إذا كان ثمة رجل بكامل قلبه وعقله مستعداً حقاً لأن يتبع الرب وأن يحمل الصليب خلفه بإيمان ، فان مثل هذا الرجل لم يكن قادراً على أن يتأخر فى السير على طريق الضريح المقدس بأسرع ما يمكن لأن البابا نفسه عبر جبال الألب بأسرع ما يستطيع ومعه كبار أساقفته ، والأساقفة ، ومقدمو الأديرة والقساوسة وبدأ يلقى عدة خطب فصيحة قال فيها : إذا كان هناك رجل يبتغى إنقاذ روحه فيجب ألا يتردد فى أن يأخذ طريق الرب " .

وكان بين الحاضرين أسقف " لابوى " واسمه اديمار وهو الذى أصبح فيما بعد " الرئيس الروحى" الذى قاد بحكمته وحسن تدبيره جيش الرب وهكذا يبدو التأثير

المعنوى للمرسوم البابوى الجريجورى الذى يضع البابوات فى المرتبة العليا لكافة الرتب الحاكمية فى الغرب الأوربى .

وتبدو إيحاءات السمو البابوى واضحة فى أحداث الحملة الصليبية الأولى والتى قامت تحت الشعار الدينى المسيحى من خلال ما يرويه لنا فوشيه الشارترى متأثراً هو الآخر- إلى حد كبير بالرؤية الألفية التى سادت الغرب الاوربى فى غضون القرن الحادى عشر وباركتها الكنيسة الكاثوليكية إلى حد أن المسيحيين هناك اعتبروا الحج إلى القدس تتويجاً لأعمال الإنسان فى الحياة الدنيا ، وبرهاناً على صحة الأفكار،والرؤى،والقيم ،والمثل التى جعلت الحركة الصليبية أمراً واقعاً .

" لقد ظهر الرب لتركى معين (أرمنى مسلم) كانت قد كتبت عليه بركة الله وقال له :" انهض أيها النائم أننى آمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين ، استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سراً ، ظهر الرب له ثانياً وقال "ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأننى الذى آمر بذلك أنا يسوع المسيح،احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكية واعلمه بأمر الرؤيا فأجابه قائلاً: أتريد أيها الغبى أن تطيع شبحاً ؟ فعاد الرجل ولزم الصمت ، ظهر الرب له مرة أخرى وقال لم لم تفعل ما أمرتك به ؟ لا تتردد لأننى أنا الذى آمر بهذا ، أنا رب الجميع " فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سراً مع رجالنا فى مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة ،....".

كما يروى لنا فوشيه انه بعد ١١ يوماً من سقوط أنطاكية ٣ يونيه ١٠٩٨م وجد أحد الفلاحين ويدعى "بارتلميو" حربة فى حفرة تحت كنيسة القديس بطرس وأشاع أنها ذات الحربة التى طعن بها يسوع المسيح فى جنبه الأيمن كما ورد فى الإنجيل ، وادعى أن الحوارى أندراوس هو الذى أوحى له بذلك وأنه أبلغ الأسقف اديمار بذلك ثم الكونت ريمون .

" .... ولم يصدق الأسقف هذه القصة " .

ولسنا هنا بصدد البحث فى تفاصيل هذه الرواية الكاذبة - بشهادة فوشيه - وإنما لبيان حقيقة بالغة الأهمية وهى أن البابوية الكولونية كانت تداوى أخطاء وتجاوزات المذاهب الكنسية الأخرى بأخطاء وتجاوزات أفدح منها ومن ثن تضاربت مثالية التعاليم البابوية مع واقع الأحداث الشائنة والتى حاولت أقلام المؤرخين المعاصرين التستر عليها بإقحام النصوص الإنجيلية ، والأقاويل المغلوطة فى رواياتهم المدونة فى اعقاب سقوط بيت المقدس سنة ١٠٩٩م ،أى بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى ؟!.

لقد شاع بين الناس فى الغرب الأوربى - عامة - وبين المشاركين فى الحملة الصليبية - خاصة - مفهوم عقيدى سرى بينهم سريان الدم فى العروق ألا وهو " سلطان البابا فى الربط والحل فى السماء والأرض " وأن البابا - أو من ينوب عنه - هو الناطق بلسان القديس بطرس ، وكل كلمة قالها أو كتبها لبنى آدم هى بلسان " بطرس " وكل كلمة يتلقاها أو يسمعها من بنى آدم تصل إلى بطرس نفسه الذى يستمد منه البابا مداد كلماته لسائر البشر، ولم لا ؟ ألم يقل جريجورى السابع فى أحد المجامع المسكونية ما نصه :

" ألا فليدرك العالم أجمع ، أنه إذا كان بمقدوركم (الأكليروس) سلطة الربط والحل فى السماء فإنكم على الأرض قادرون على أن تعطوا الملك لمن تشاءون وتنزعون الملك عمن تشاءون " .

ولذلك لم يكن سهلاً على الملوك الألمان بعد أن حملوا لقب " أباطرة الرومان " وارتبطوا فى مصالحهم بالبابوية فى ايطاليا - أن يرتضوا هذا الصلف والغرور من جانب البابا الرومانى ولذلك اختاروا لأنفسهم بابوية موازية لبابوية روما مثلما حدث بعد الخلاف الحاد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع

إذ انحاز الأول إلى "جيبرت" ليكون البابا الموازى للبابا جريجورى السابع تحت اسم كليمنت الثالث فى الفترة من سنة ١٠٨٠ إلى سنة ١١٠٠م .

ويصف فوشيه هذا الموقف الألمانى المضاد بقوله :

" أما الشيطان الذى يسعى دائماً وأبداً لتحطيم الإنسان ويجول فى الأرض كالأسد الباحث عن فريسة يلتهمها ، فقد أقام ليبث الفوضى بين الناس ، منافساً معيناً للبابا إربان ويدعى جيبرت وقد بدا هذا الرجل مدفوعاً بالعجرفة ، ومدعوماً بصفاقة إمبراطور بافاريا (هنرى الرابع) سابق الذكر يغتصب المركز البابوى بينما تمسك جريجورى المعروف بهيلد براند وهو البابا الذى سبق إربان بمركزه فى الكنيسة حتى أنه منع جريجورى نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس".

وهنا لابد أن نشير إلى طبيعة العلاقة بين هذه الرواية المشحونة بالكراهية والضغينة من جانب المؤرخ الكنسى المعاصر "فوشيه" وقصة اكتشاف الحربة المقدسة فى حفرة بأرض تحت كنيسة القديس بطرس بأنطاكية حيث كانت الحربة مدفونة فى كنيسة بطرس المبارك أمير الحواريين الذى يستمد منه البابا إربان الثانى سلطته الشرعية وقوته الروحية .

ومن استقراء المرسوم البابوى لجريجورى السابع ، وخطبة الدعوة الصليبية لإربان الثانى نستشف حقيقة المآرب السياسية ـ اللادينية ـ لكلاهما إذ كان الهدف الرئيس للمشروع الصليبى هو فرض سيطرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما على سائر الكنائس فى الشرق وإنهاء الشقاق بين الكنيستين الغربية فى روما والشرقية فى القسطنطينية كذلك استخدمت البابوية الجريجورية الإربانية المشروع الصليبى كأداة من أدوات السياسة الداخلية أثناء صراع الكنيسة مع القوى الكنسية الأخرى والقوى العلمانية فى المجتمع الأوربى بما يحقق السيادة العليا لبابا روما

وهو الصراع الذى أورثه جريجورى السابع لخلفه إربان الثانى بحيث يمكن القول أن مصطلح البابوية الدنيوية كانت خيراً لها وأبقى من مصالحها مع " يسوع " الرب .

ومن يقرأ رواية فوشيه الشارترى عن الخلاف بين البابا إربان "بابا روما" وجيبرت "بابا بافاريا" يلمح البعد السياسى فى هذا الخلاف المتسربل برداء العقيدة فضلاً عن حالة التعالى والغطرسة التى تفوح بين سطور الرواية والتى تُعد امتداداً لنفس الحالة فى المرسوم البابوى الجريجورى الذى يضع البابا فى روما - فقط سيداً للعالم المسيحى ونائباً للمسيح على الأرض لا يسأله أحد من أرباب السلطتين الدينية والزمنية عما يقول أو يفعل وهو وحده " لا ينبغى أن ينطق اسم غير اسمه فى الكنائس وهو - وحده " لا ينبغى لأحد أن يلغى أى حكم صادر منه " و"أنه هو نفسه لا يحاكمه أحد" .

" ...... ولكن كان واضحاً لذوى العقل من الرجال أن إربان كان الأفضل من (جيبرت) فالحق أن الأفضل هو من يضبط أعصابه وعواطفه ويحكمها كما لو كانت عدوته ، كان جيبرت بصفته أسقف مدينة رافنا واسع الثراء وكان يختال فى مظاهر البذخ والترف ، ومن العجيب أن هذه الثروات لم تشف غليله وهل يعقل أن يعتبر نموذجاً للحياة المثالية من يعشق المظاهر ويتطاول بجرأة على اغتصاب عرش سلطة الله ؟ الحق أن هذا المركز يجب ألا ينتزع بالقوة ".

ولعل الباحث يتساءل : إلى مَن مِن الباباوات يوجه فوشيه الشارترى هذا النقد؟ إلى بابا روما أم إلى بابا بافاريا ؟

لاشك إذن أن الدعوة الصليبية جاءت إفرازاً حتمياً لنظرية الإملاء البابوى وهى حالة من الاستبداد السياسى للبابوية الجريجورية بدأت مرحلتها الأولى داخل المجتمع الأوربى فلما طفح الكيل ، وبلغ سيل الاستبداد الزبى بدأت المرحلة الثانية خارج الغرب الأوربى وبالتحديد فى الشرق العربى الإسلامى .

ومما يؤكد اقتفاء إربان الثانى لآثار الحقد والكراهية فى مرسوم الإملاء البابوى الجريجورى ما دأب عليه قبيل قيام الحملة الصليبية الأولى من مخاطبة العديد من الأمراء الأوربيين من خلف سادتهم من الملوك الإقطاعيين ، فضلاً عن إرساله لعدد من الأساقفة إلى مناطق متفرقة خارج فرنسا لدعوة هؤلاء الأمراء ومن بعدهم النبلاء والفرسان لموازرته فى حملته المقدسة الساعية إلى إنقاذ إخوانهم المسيحيين الشرقيين من المسلمين (الكفار) الذين يسومونهم سوء العذاب وينتهكون حرمات الأماكن المقدسة فى أرض السيد المسيح .

ومن بين الرسائل التى بعث بها إربان الثانى إلى هؤلاء الأمراء والنبلاء والفرسان تلك الرسالة التى بعث بها الى " كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥م والتى يقول فيها : " إننا نعتقد أيها الأخوة أنكم علمتم منذ زمن طويل من مصادر عديدة الأخبار المحزنة عن أن البرابرة (المسلمين) فى هياجهم قد غزوا ونهبوا كنائس الرب فى الأقاليم الشرقية والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الرب المقدسة التى ازدانت بعذابه وقيامته وأنهم باعوا كنائسها فى عبودية مقيتة ، وإذا فكرنا بإخلاص فى هذه المصيبة وحزننا بسببها فإننا زرنا بلاد الغال وحرضنا السادة والرعايا بحماسة فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية ، ...." .

وكذلك الرسالة التى بعث بها إلى أتباعه فى بولونيا " أحباء الرب " فى ١٥ سبتمبر ١٠٩٦م والتى يعزف فيها على نفس الوتر " الدينى " بأسلوب يدغدغ أحاسيس السامعين ، ويمس شغاف قلوب العاشقين للسيد المسيح عليه السلام .

" .... لأن المسيح نفسه قال عن هذا الشخص الأسقف أن من يسمعه يسمعنى ، وقد سمعنا أن كثيرين منكم قد هاجمهم الشوق للذهاب إلى أورشليم القدس "(فلسطين).

وبمقارنة هذه النصوص وغيرها بخطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون نلاحظ أنها جميعاً تسير على التوازى مع الفكر السياسى الجريجورى الذى استهل ولايته الدينية بتأكيد السيادة الإقطاعية للبابوية على سائر الملوك والأمراء والنبلاء بفضل ورحمة من الرب .

" إن البابا الرومانى إذا تمت رسامته بشكل قانونى ، يكون قد صار قديساً دونما شك وذلك بفضل سان بطرس ".

بل إن الأفكار والخواطر التى تحويها تلك الرسائل تكاد أن تكون مناظرة لنفس الأفكار والخواطر التى وردت فى الرسائل التى بعث بها البابا جريجورى السابع إلى الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان وعامة الناس فى الغرب الأوربى يناشدهم فيها باسم الرب الذى هو نائبه أن يهبوا جميعاً أو أشتاتاً للدفاع عن المسيحيين فى الشرق الذى يتعرضون للاضطهاد والعذاب من جانب أعدائهم المسلمين ""الكفار".

وفى هذا يقول :

" .... ، ومن ثم فنحن نناشدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تتحركوا بكل العطف إزاء جراح ودماء إخوانكم لإنقاذهم مما يقاسونه ، ..." .

ويضيف فى رسالة أخرى إلى الملك هنرى الرابع :

" إن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من الاضطهاد والذبح من جانب المسلمين الذين يذبحونهم كما تُذبح الخراف ، وأنهم كتبوا إلىَ مستغيثين ، ولتعلم أن هناك خمسين ألف رجل على أهبة الاستعداد للقتال تحت قيادتى ، وإنى اقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا سيرهم حتى قبر المسيح ".

وإذا علمنا أن هذه الدعوة الصليبية التى أطلقها جريجورى السابع فى سنة ١٠٧٤م وأعقبها بمرسومه البابوى فى سنة ١٠٧٥م كانت المقدمة الأيديولوجية للحروب الصليبية أدركنا بمنتهى البساطة أن دعوة البابا إربان الثانى لقيام أول حملة استعمارية باسم الدين المسيحى كانت تطبيقاً عملياً للمرسوم البابوى الجريجورى الذى تأسس على فكرة السيادة الإقطاعية للبابا الكاثوليكى ، وهى الفكرة التى خرجت إلى حيز التنفيذ فى الغرب الأوربى زمن جريجورى السابع فى إطار الصراع بينه وبين الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع ، ذلك الصراع الذى تسربل برداء التقليد العلمانى ، وأراد البابا بعد النصر الذى حققه على أعدائه المسيحيين الغربيين أن ينقل هذا الصراع من المستوى " المحلى " إلى المستوى " العالمى " تحت رداء السيد المسيح وهو ما لم يستطع أن ينفذه عملياً طيلة عشر سنوات قضاها فى حروب داخلية ضد الملوك والحكام العلمانيين .

وقد لا نبالغ إذ قلنا أن الدعوة الصليبية بدأت بالفعل فى تطبيقات المرسوم البابوى الجريجورى فى الغرب الأوربى الكاثوليكى ثم فى الشرق البيزنطى الأرثوزكسى .

لكى تنتهى بكل تداعياتها فى الشرق العربى / الإسلامى مما يكشف عن الدوافع الحقيقية للحركة الصليبية العالمية .

ويرى ميشيل بالار Michel Balard أن فكرة الحرب ضد المسلمين (الكفار) وتبرير استخدام العنف لحماية الكنيسة فى إطار مشروع عسكرى منظم تبدأ منذ بداية بابوية ليو التاسع Leu ix (١٠٤٩ - ١٠٥٤م) مرورا بالبابا اسكندر الثانى Alexander II (١٠٦١- ١٠٧٣م) وتنتهى عند جريجورى السابع Gregeory VII (١٠٧٣- ١٠٨٥م) الذى جمع خلاصة فقرات سان أوغسطين عن الحرب العادلة التى كانت محدودة التطبيق من جانب من سبقوه - لتبرير تشكيل

قـوة مـسلحة مـن فرسـان القـديس بطـرس للحـرب ضـد المـسلمين " البرابـرة " فى الشرق ، ولم يكن صعباً على البابا حيننذ بوصفه نائباً للمسيح أن يحـول مفهـوم الخدمـة العـسكرية مـن تـراث القـديس بطـرس إلـى تـراث المسيح وتوجيـه اسـتخدام السلاح داخل الغرب الأوربى إلى مسرح العمليات فى الشرق الإسلامى .

ومن الوهم تـصور خطبـة البابـا إربـان الثـانى فـى كليرمـون بعد عقد مجمعه فى أوفرنيا فى إطار مصالح المـسيحيين فـى الـشرق والتـى تعد هدفاً ثانويـاً للحملات الـصليبية إذ مـن غيـر المعقـول أن البابـا إربـان الثـانى - الـذى تربـى فـى كنـف أستاذه جريجورى السابع منذ أن كان راهباً فـى كلـونى سـنة ١٠٧٣م ، وحتـى قيامـه برحلـة الإصلاح الكنسى التى استمرت سنة كاملـة (أغسطس ١٠٩٥ـ أغسطس ١٠٩٦م) عقد خلالـها عدة مجامع ، أثمرت توحيد الكنـائس والمجتمـع العلمـانى حـول شخـصه - كان يتطلع إلى شئ سوى التطبيق الكامل لبرنامج الإصلاح الكنسى الذى حـدده سلفه - جريجورى السابع - ذلك البرنـامج الـذى تبـدو ملامحـه واضـحة فـى مرسـوم الإمـلاء البابوى سنـة ١٠٧٥م ، وخطبة البابـا فـى سنـة ١٠٩٥م والتـى تتعلـق أساسـاً بوحـدة الكنيـسة وسـلطة البابويـة الكاثوليكيـة علـى سـائر الكنـائس فـى أنحـاء العـالم والتى كانت بدايتها مملكة فرنسا مما يعنى أن دعوة البابا لحملة صليبية على الشرق لم تكن فى حقيقة الأمر من أجل إنقاذ قبر المسيح وتحرير القدس بقدر كونـها دعوة للتوسع المسيحى الكاثوليكى والخروج من حيز الصراع الكنسى الإقليمى إلى منـاطق واسعة من أنحاء العالم .

ولعل القس فوشيه الـشارترى قد انـضم إلـى جيش بلـدوين الأول فـى آسيا الصغرى وظل بـصحبته قرابـة عـامين فـى إدارة الرهـا (١٠٩٨ - ١١٠٠م) دون أن يذكر لنا شيئاً فى مذكراته عن تحرير القبر المقدس مما يدفعنا إلى فهم مسألة تحرير الكنائس الشرقية فى إطار الصراع بين المسيحيين أنفسهم على " تركة" المسيح؟!.

بمعنى أن إربان الثانى حين طرح دعوته فى " كليرمون " كان يستهدف من المشروع الصليبى شيئاً مختلفاً عما يستهدفه النبلاء والفرسان الإقطاعيون ، أما جماهير العامة من الفقراء والمعدمين وأشباههم من الفلاحين وسكان المدن الناشئة فكانت الدعوة الصليبية بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً عما دعت إليه البابوية وما فهمه الفرسان الإقطاعيون ،بل إن دوافع هؤلاء العامة
كانت تتناقض تماماً مع أهداف الكنيسة وطبقة النبلاء ، فبينما رأت هذه الطبقة الفوقية ـ الدينية والعلمانية ـ فى هذه الحملة الصليبية فرصة نادرة لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى الشرق رأت الطبقة التحتية من العامة والفلاحين فى ذات الحملة الصليبية فرصة نادرة للهروب من عبودية هذه الطبقة الإقطاعية المستغلة فى إطار ظروفهم المعيشية المتردية والتى بلغت حد المجاعة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى.

وبالرغم من أن خطبة البابا إربان الثانى كانت موجهة أساساً إلى الجيوش الإقطاعية دون غيرها من الشرائح الاجتماعية الأخرى فإن المصادر التاريخية تخبرنا أن الاستجابة الشعبية لخطبة إربان فاقت كل التوقعات وأن كلماته البلاغية سرت فى نفوس الجماهير سريان النار فى الهشيم ، فقد كان المناخ الدينى والنفسى والاجتماعى ملائماً تماماً لترجيع صدى هذه الكلمات فى خيال الكادحين والبائسين الذين راودتهم أحلام الخلاص الروحى سعياً لحياة أخرى هانئة مع " المسيح " إن هم قاتلوا وقتلوا فى سبيله ، فإن لم تتحقق لهم إحدى الحسنيين فهنيئاً لهم الحسنى الأخرى وهى الحياة الدنيوية الرغدة فى ضياع الشرق حيث الماء والخضرة والوجه الحسن أو " الأرض التى تفيض باللبن والعسل " كما ورد فى الكتاب المقدس :

" لأنه حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم " .

ويطالعنا المؤرخ المجهول بكثير من العبارات العاطفية المقتبسة من الكتاب المقدس والتى وردت فى خطبة إربان الثانى ووجدت آذاناً صاغية من العامة والدهماء الذين هبوا بمجرد سماعها معلنين إتباعهم لآثار خطى المسيح الذى وعدهم بحياة الخلد فى السماء .

" .... لأن أجركم عظيم فى السموات " .

وقراءة متأنية لبعض النصوص الأصلية للخطاب البابوى فى كليرمون فى سنة ١٠٩٥م تكشف عن فكرة محورية فى الخطبة وهى "عولمة" الدعوة الصليبية وتوسيع هيمنة الكنيسة الكاثوليكية لتصبح بابوية روما صاحبة الحق فى السيادة على هذا العالم بشقيه الدينى والدنيوى وهى نفس الفكرة المحورية فى مرسوم الإملاء البابوى الذى صدر فى سنة ١٠٧٥م عن البابا جريجورى السابع

ويبدو أن فوشيه الشارترى فى كتابه عن الحملة الصليبية الأولى والتى يحمل عنوان " التاريخ الأورشليمى " Historia Hierosalymitana قد حاول أن يكرس الأفكار الواردة فى برنامج الإصلاح الكنسى سالفة الذكر فى صياغة بنود الخطاب البابوى إلا أن نجاح الحملة الأولى فى تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م جعله يؤلف روايته - التى صارت المصدر المحلى لكل مؤرخى الحملات الصليبية - على أساس أنها " حملة مقدسة " أو"حج مسلح " أو " حملة جيش المسيح " التى يجرى تدشينها بمبادرة بابوية خالصة مستمدة من أوامر الرب .

بل إن الباحث فى التطور العسكرى للدعوة الصليبية فى المراحل التالية لاحتلال القدس والتى استجاب لها ملوك وأمراء الغرب الأوربى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يلاحظ حجم الدوافع المتداخلة فى الفكر البابوى والتى تبلورت جميعها فى اليوم الأخير لانعقاد مجمع كليرمون (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م) فى شكل

دعوة صريحة لكل الفرسان والمؤمنين بالمسيح بحمل السلاح والتوجه إلى الشرق لإنقاذ مملكة الرب فى القدس ، والتى هو مسئول عنها أى البابا بصفته " الحبر الأعظم" الذى يحكم هذا العالم بتفويض من القديس بطرس أول البابوات الشرعيين!

"... إننى أخاطب الحاضرين وأعلن للغائبين أن يسوع المسيح يأمر بما يلى: كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له كل خطاياه " .

ولكن الباحث يتساءل هل هذه الحملة التكفيرية التى جاءت إلى الشرق باسم المسيح وأدت إلى قيام مملكة الرب فى أورشليم " القدس " كانت تعبيراً حقيقياً عن تجربة يسوع المسيح ؟

لاشك أن مدونى هذه النصوص (فوشيه - المؤرخ المجهول - روبير جيوبرت) أدركوا ذلك بداهة فحاولوا - بعد نجاح الحملة الأولى - أن ينسبوا الدعوة الصليبية فى ظاهرها " الجميل" إلى البابوية وفى باطنها " القبيح " إلى العلمانية !

والحقيقة - عندنا - أن الفكر البابوى كان صليبياً منذ اللحظة الأولى التى أطلق فيها جريجورى السابع دعوته لقيام حملة صليبية لإنقاذ مسيحى الشرق والتى تبناها ــ عملياً ــ خلفه إربان الثانى إلا أن جريجورى السابع أعرض عن " صليبيته " ضد الشرق لأجل غير مسمى كى يتفرغ لشن حرب صليبية مبكرة فى الغرب الأوربى ضد الحكام العلمانيين وأرباب السلطة الزمنية على مدى عشر سنوات (١٠٧٥ـ ١٠٨٥م)أى منذ إصداره لمرسومه الشهير " الإملاء البابوى "الذى تضمن حق البابا " حق البابا فى عزل الأباطرة " ثم إعلانه الحرب صراحة على كل معارضيه من الكنسيين أو العلمانيين إذ يقول :

" ليس بكاثوليكى كل من يخالف الكنيسة الرومانية ولن ينعم بالسلام وأن الكنيسة الرومانية لم ولن تخطئ أبداً " .

وهكذا كان التحول من حرب صليبية " مقدسة " فى اتجاه الشرق يقودها البابا إلى حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوربى يدير عملياتها ضد الملوك هى الركيزة الأساسية التى أستند عليها البابوية لتحقيق مآربها السياسية والتى تتمحور حول السيادة على ملوك أوربا وتوحيد كنيستى روما والقسطنطينية باسم الدفاع عن مسألة المسيحيين الشرقيين وهى السياسة التى وضع قواعدها جريجورى السابع وأكمل بناءها من بعده أربان الثانى بحذق ومهارة عندما سحب البساط من تحت أقدام الملوك ونزع مخالب قوتهم المتمثلة فى جيوش الأمراء وبذلك صار ملوك الغرب بلا ثروة مادية أو بشرية وبالتالى بلا مخالب أوأنياب .

وفى تصورنا أن هذه الفكر الصليبى التوافقى بين جريجورى السابع وتلميذه إربان الثانى لا يمكن أن ينسب مطلقاً لزعامة روحية بقدر ما ينتسب إلى زعامة دنيوية تريد ممارسة كافة شئون السلطة الزمنية وسلبها مصدر قوتها ألا وهى السيادة الإقطاعية وإن اقتضى ذلك "عزل الأباطرة " جميعاً ليكون للبابا وحده " الاسم العالمى الوحيد فى العالم " غرباً وشرقاً .

ومن هنا قد يحالفنا الصواب إذ قلنا : إن دعوة أربان الثانى فى كليرمون فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م كانت ـ حصرياً ـ على الأمراء دون الملوك لترسيخ فكرة السلطة الروحية والزمنية المطلقة للبابوية ولم لا ؟

ألم يعلن أستاذه ذلك فى مرسومه الذى يجعل للبابا حق عزل الأباطرة ، واستخدام شارات الإمبراطورية والدعاء له وحده فى كل كنائس العالم تحت"الاسم الكاثوليكى" .

ومما يؤكد رؤيتنا لجوهر المشروع الصليبى الذى دعا إليه إربان الثانى وتهيأ إليه النبلاء والفرسان الإقطاعيون بوصفه الحل الأمثل لطموحاتهم السياسية والاقتصادية فى عالم الشرق الساحر دون النظر لأى ضوابط دينية أو أخلاقية

تحول دون تحقيقه ، ما حدث فى سبتمبر سنة ١٠٩٨م بعد استيلاء الجيوش الصليبية على أنطاكية إذ ارتأى قادة الحملة وعلى رأسهم " بوهيموند " أن تكون هذه المدينة مقراً لكرسى البابوية ، ومركزاً للقيادة الصليبية صوب القدس وأن تطلب ذلك التضحية بمصالح المسيحيين الشرقيين والبيزنطيين "الأرثوزكس " باعتبارهم " هراطقة " لا يلتزمون بتعاليم البابا الكاثوليكى جريجورى السابع حسبما جاء فى مرسومه الإملانى الذى سار على هديه البابا أربان الثانى .

" إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده ، وأن البابا الرومانى هو وحده الذى يمكن أن يوصف بأنه عالمى بحق ، وأنه لا ينبغى أن ينطق اسم غير اسمه فى الكنائس ، ..." .

" ... ، ومن ثم ، فماذا فى هذا العالم يمكن أن يكون صواباً من أنك أبو ورأس العقيدة المسيحية ،.."

يقول زعماء الحملة الصليبية فى خطابهم إلى البابا إربان الثانى بعد الاستيلاء على أنطاكية ووفاة " أديمار " مندوب البابا معبرين عن دوافعهم الحقيقية التى أرسى دعائمها جريجورى السابع ومن بعده إربان الثانى :

" إلى السيد المبجل البابا إربان من بوهيموند ، وريمون كونت سان جيل والدوق جودفرى أمير اللورين ، وكونت روبرت أمير نورماندى ، وروبرت كونت الفلاندرز ، والكونت إيستاس البولونى ، تحياتنا ، ومثلما يبعث الأبناء إلى أبيهم الروحى ، نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون فى حب المسيح ، ونحن نرغب أن نحيطكم علماً أنه بفضل رحمة الرب العظيمة وبفضل مساعدته الرائعة استطعنا أن نستولى على مدينة أنطاكية بحيث أن الأتراك الذين سببوا كثيراً من العار لسيدنا يسوع المسيح وقعوا ضحية الأسر والذبح وأننا حجاج المسيح الذاهبون إلى القديس قد انتقمنا للرب العظيم ... ، لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين ولكن الهراطقة

المسيحيين من اليونانيين والأرمن والسوريان واليعاقبة لم تستطع التغلب عليهم أنت نائب بطرس المبارك ينبغى أن تجلس على عرشه وتستخدمنا أبناءً مطيعين فى تنفيذ (مشروعك) حتى يمكنك بقوتك وسلطانك أن تدمر الهرطقات كلها وتقضى عليها أياً كان نوعها " ؟!

وهذا الخطاب يفرغ المثال الصليبى من مضمونه ، ويجعل روايات المؤرخين المعاصرين حول حماية المسيحيين الشرقيين من بطش المسلمين نوعاً من اللغو والتحايل والإفتئات على واقع الأحداث .

وربما تمادت البابوية فى ترجمة فكرها الدنيوى فسعت بخطى حثيثة لتتبوأ مكانة الملوك الإقطاعيين حتى أصبح البابا نفسه سيداً إقطاعياً تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك العلمانيين وبدا هذا الاتجاه واضحاً منذ زمن جريجورى السابع وحتى انطلاق الدعوة المسيحية زمن إربان الثانى صوب الشرق الإسلامى فى محاولة غير مسبوقة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية لاحتواء العالم - غربه وشرقه - تحت سيادة البابا فى روما .

وكانت البداية فى سنة ١٠٧٣م عندما أرسل جريجورى السابع إلى كل الأمراء الراغبين فى التوجه إلى أسبانيا لاسترداد الأراضى من أيدى مسلمى الأندلس " الوثنيين " وحذرهم من مغبة الانفراد بالمكاسب الإقطاعية هناك وإنما يكون ذلك بموافقة البابا الذى هو نائب القديس بطرس باعتبار أن هذه الأراضى وسائر الأملاك تؤول إليه بحكم تبعيته لسيد الخلق أجمعين .

" ...، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفرداً أو لحسابه الخاص فليكن معلوماً للجميع أنه من الخطأ المبين أن تغضبوا القديس بطرس بالاستيلاء على تلك الأراضى " .

وهذه الرسالة وغيرها من الرسائل تنم عن السيادة الإقطاعية التى سعت البابوية إلى تحقيقها باسم " السمو البابوي " وقد يتصور أحد خطأ أن هذا المسلك الدنيوى من جانب جريجورى السابع يدخل ضمن برنامج الإصلاح الكنسى ولا علاقة له بالفكر البابوى الرامى إلى " عولمة " الدعوة الصليبية بدءاً من روما وانتهاء بالقدس تحت دعوى " الدفاع عن الإيمان المسيحى العالمى " .

وهى نفس الدعوى التى رفعها إربان الثانى فى كليرمون ضد أعداء المسيح فى أنحاء العالم متأسياً بفكر سلفه المقدس ، وفيها يقول :

" أنتم أيها الأخوة الأعزاء : يجب أن تفكروا وتتدبروا إذا كان الرب يتصرف من خلالكم بحيث تنعش أم الكنائس من جديد بفضل تعاونكم لتنتشر المسيحية فى آفاق جديدة ، فهل يرغب الرب فى استعادة بعض أقاليم الشرق إلى رحاب العقيدة فى مواجهة اقتراب زمن المسيح الدجال ؟

وقد أشار جيوبرت النوجنتى إلى حقيقة هذه الدعوة الصليبية فى روايته المطولة والتى تدور حول فكرة عالمية الكنيسة الكاثوليكية تحت قيادة الفرنجة " شعب الله المختار " .

" .....، وبفضلكم يمكن للاسم الكاثوليكى الذى سيقاوم غدر وخيانة المسيح الدجال وأعوانه أن ينشر هذا الاسم ، ...." .

والواقع أن التزام البابا إربان الثانى بالبرنامج الإصلاحى الجريجورى كلفه الكثير من الجهد الذى بلغ معه حد الإعياء مما جعله يتخلى جزئياً عن أيدلوجية سلفه فى الصراع مع الملكية وقد تمثل ذلك فى بعض التنازلات التى قدمها للحكام النورمان فى انجلترا وجنوب ايطاليا إذ منحهم حق السيادة على الكنائس الموجودة فى أراضيهم وهو ما لم يفعله مع الحكام الألمان حسداً واستكباراً وفعله خليفته باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩ـ ١١١٨م) فى زمن الإمبراطور الألمانى

هنرى الخامس (١١٠٥ـ ١١٢٥م) عندما أقام الدنيا فى أوربا من فرط الدهشة بإعلانه التوصل إلى اتفاق مع عدوه اللدود - هنرى الخامس - مؤداه أن يسلم الكنسيون الألمان التاج الإمبراطورى كافة أملاكهم ومناصبهم العلمانية لكى يصبحوا بعدها روحيين فقراء مقابل عدم تدخل الإمبراطور فى شئون الأساقفة ومقدمى الأديرة الألمان وهى صفقة رابحة للملكية الألمانية - خاصة - ولأرباب السلطة الزمنية فى أوربا - عامة - على المستويين السياسى والاقتصادى .

وفى رأينا أن هذه الصفقة التى جاءت نتيجة طبيعية لمبادرة إربان الثانى السلمية تجاه السلطة العلمانية فى انجلترا وايطاليا أحدثت هزة قوية تحت أقدام رجال الكنيسة بوصفها انقلاباً على الأسس المتينة التى وضعها جريجورى السابع لتنظيم العلاقة بين البابوية والإمبراطورية وعبر عنها بوضوح شديد فى مرسومه الإملائى سنة ١٠٧٥م **Dictatus papae** والتى استلهم روحه من تعاليم أوغسطين ، وأمبروز والمنابع العاطفية الدينية التى سرت فى نفوس العامة فى القرن الحادى عشر مع حلول الأفكار الألفية التى تنبئ بنهاية هذا العالم السفلى ومن ثم حدث تناقض بين طرفى المعادلة الجريجورية إذ أن أحد الطرفين يدعو إلى الفكر الإنجيلى الاجتماعى الألفى ومذهب الفقر الرسولى وروحانية الكنيسة بينما يدعو الطرف الآخر من المعادلة إلى الاستبداد البابوى ، والسلطة الكنسية المطلقة وعصمة البابا مما يجعلنا - بحق - ننظر إلى نتائج الإصلاح الجريجورى الفكرية باعتبارها نتائج غاية فى التعقيد وعدم التجانس ، فضلاً عن زيفها وعدم مصداقيتها .

أما نتائجها العملية والمتمثلة فى النزاع حول التقليد العلمانى والدعوة إلى الحملة الصليبية فإنها جاءت تعبيراً عن الإفلاس الأيديولوجى للفكر البابوى الذى حاول أن يوظف تعاليم دينية معينة فى خدمة أهداف دنيوية محددة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا أن مرسوم الإملاء البابوى فى سنة ١٠٧٥م كان بمثابة " دعوة صليبية عالمية " ضد نظم الحكم السياسية ، والتنظيمات الكنسية المضادة لكنيسة روما باعتبار أن البابا جريجورى السابع - صاحب هذه الوثيقة الثورية - خليفة للقديس بطرس أمير الحواريين والتلميذ الأول للمسيح ، وفى نفس الوقت خليفة للإمبراطور قسطنطين الحوارى الثالث عشر - ومن ثم كانت حربه المعلنة ضد كل من تسول له نفسه من الأباطرة والملوك والأمراء العلمانيين أن ينال من قداسته ، وسلطته الكنسية المطلقة على كافة كنائس العالم بما يضمن التفوق والسمو للبابوية على الملكية ، وكان على رجال الكنيسة وملوك غرب أوربا أن يدركوا حقائق هذا المرسوم المريرة وأن هذه الأيديولوجية أكثر ثورية وأشد عنفاً من الفروض القانونية البسيطة الواردة فى البيان الأول لبرنامجه الإصلاحى .

كذلك فإن خطبة كليرمون فى سنة ١٠٩٥م أى بعد عقدين من تاريخ إصدار المرسوم كانت دعوة صليبية " عالمية " تلازمت فى أهدافها مع الدعوة المحلية والتى كان من أهمها إعادة توحيد العالم المسيحى بعد المنازعات المريرة بين الكنائس العالمية فى روما ، والقسطنطينية وأنطاكية ، والإسكندرية ، وفلسطين حول الكرسى الرسولى فضلاً عن إنهاء الشقاق المحتدم منذ سنة ١٠٥٤م بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية بسبب النزاع اللاهوتى حول طبيعة المعبود والذى بلغ أقصى مداه من الكراهية حتى تصورت بعض القوى المشاركة فى الحملة الصليبية الأولى وفى مقدمتها القوة النورمانية - أن هذه التجريدة العسكرية موجهة فى المقام الأول ضد الإمبراطورية البيزنطية ، ولم لا ؟ فثمة مقولة شهيرة لجريجورى السابع :

انه يفضل التعامل مع " الكفار " المسلمين على التعامل مع " الهراطقة " البيزنطيين !

ومن هذا المنطلق تكاملت الدعوة الجريجورية مع الدعوة الإربانية فى هدف مشترك رئيسى وهو أن الغزو الصليبى للشرق يمكن أن يكون خطوة كبيرة على طريق الهيمنة البابوية على الأراضى البيزنطية وتأكيد زعامة البابوية وسموها على الكنيسة البيزنطية تتلوها خطوة أكبر وهى الهيمنة المطلقة على أراضى وكنائس الشرق قاطبة ، ومثلما قهرت البابوية عدوها اللدود الملك الألمانى هنرى الرابع (١٠٥٦ـ ١١٠٥م) فى الغرب اللاتينى تستطيع ـ كذلك ـ أن تقهر عدوها الأشد لدأ الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ـ ١١١٨م) من خلال هذه الحملة الصليبية المتناقضة فى دوافعها وأهدافها .

الخلاصة :

وخلاصة القول فى هذه الدراسة أن مرسوم الإملاء البابوى فى سنة ١٠٧٥م وخطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥م تلازماً فى " عولمة " الدعوة الصليبية والتى بدأت مرحلتها الأولى" المحلية " فى الغرب الأوربى عندما التقى الفكر البابوى بكل موروثاته العقيدية مع الفكر البابوى الصليبى بكل أطماعه الدنيوية فى بؤرة واحدة هى "الحرب المقدسة" أو "الحرب الصليبية" التى صارت أداة طيعة فى يد السلطة الكنسية الكاثوليكية لتحقيق مآربها فى مواجهة السلطة الزمنية العلمانية من ملوك فرنسا وألمانيا وانجلترا وسائر ملوك العالم المسيحى حتى صار جريجورى السابع " البابا الروحى " بمثابة " الشيطان المقدس " و " الراهب الزائف " المغتصب لكرسى بطرس الرسول على قول الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦ـ ١١٠٦م) .

ولذلك لم يكن عجباً أن يطرح جريجورى السابع فكرة إنقاذ مسيحى الشرق والقبر المقدس فى فلسطين جانباً ،وأن يشحذ همته بكاملها لشن حرب صليبية لا هوادة فيها ضد هؤلاء الحكام العلمانيين على مدى عشر سنوات

(١٠٧٥ـ ١٠٨٥م)،وأن يجعل من أحد هؤلاء الحكام " هنرى الرابع " عبرة لمن يخشى من الأباطرة والملوك الذين تمردوا عليه واستكبروا على سلطانه العظيم فكان حتماً عليهم أن يقبّلوا القدم ويبدوا شديد الندم على ما اقترفه الإمبراطور الألمانى فى حق البابا ، وإلا يلقون آثاماً ويكون من حق البابا عزلهم جميعاً بموجب قانونه الكنسى .

ولم يكن عجباً - كذلك - أن يواصل إربان الثانى مسيرة سلفه - جريجورى السابع فى إطار مشروع عالمى صليبى فى اتجاه الشرق على محور القسطنطينية - القدس إعلاءً لنظرية السمو البابوى التى طبقة بنودها عملياً فى الغرب الأوربى بنجاح منقطع النظير وحان الوقت لتطبيقها على هراطقة القسطنطينية قبيل مواجهة "الكفار " المسلمين لاستكمال مراحل هذا المشروع العالمى الصليبى الذى وضع قواعده الأولى البابا جريجورى السابع لفرض هيمنة الكنيسة الكاثوليكية على سائر كنائس العالم إذ " لن ينعم بالسلام كل من يخالف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يحيد عنها " على قول البابا .

لقد صارت البابوية بدعوتها الصليبية العالمية بحثاً عن الثروة والجاه وسائر الشهوات أكثر علمانية من العلمانيين بعد أن هجرت تعاليم المسيح الداعية السلام والمحبة والوئام ، وصارت الدعوة الصليبية مصطلحاً سئ السمعة فى كتابات المؤرخين وستظل كذلك إلى يوم الدين ، ولم تعد الحروب الصليبية فى أذهان الباحثين سوى قصة تراجيدية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزى والعار لأكبر مشروع استعمارى استيطانى فى عالم العصور الوسطى .

قائمة المصادر

والمراجع العربية والأجنبية

- الكتاب المقدس

المصادر والمراجع العربية

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠هـ - ١٢٣٣م)

- الكامل فى التاريخ " الجزء العاشر " (دار صادر ، بيروت ١٩٦٥م)

أرنست باركر :

- الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٦٠م)

ألبرت الأبكسى :

- نصوص مختارة من كتاب " الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق " اختيارقاسم عبده قاسم (القاهرة - بدون تاريخ)

جوزيف نسيم يوسف:

- الغرب والروم واللاتين (القاهرة ١٩٦٧م)

رأفت عبد الحميد محمد:

- الدولة والكنيسة "٥ أجزاء " (دار المعارف،القاهرة ١٩٨٢- ١٩٨٤م)

- نظرية السمو البابوى بين النظرية والتطبيق (ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد ٣ ، القاهرة ١٩٨٥م ص ١٥٧- ٢٢٦)

- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٧م)

- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٨م)

روبير الراهب :

رواية مجمع كليرمون - ضمن كتاب قاسم عبده قاسم"الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق " (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠١م)

سعيد عبد الفتاح عاشور:

- الحركة الصليبية (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط٦ ، ١٩٧٦م ، جزءان)

- أوربا العصور الوسطى (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط١٠ ، ١٩٨٦م ، جزءان)

فوشيه الشارتري:

- تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ترجمة وتعليق زياد العسيلي

- رواية مجمع كليرمون - ضمن كتاب قاسم عبده قاسم " الحروب الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق تاريخية " (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠١م)ص ٧٣-٧٦

قاسم عبده قاسم :

- الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية - دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩م (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م)

- ماهية الحروب الصليبية (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٣م)

- الحروب الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق

- المسلمون والفرنج : صورة الآخر فى عصر الحروب الصليبية الندوة التاريخية المصرية الألمانية الأولى تحت عنوان : المسلمون والأوربيون فى العصور الوسطى : صورة الآخر (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ٢٩- ٣٠ أبريل ٢٠٠٨م)

ميشيل بالار :
- الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن ١١ إلى القرن ١٤
ترجمة بشير السباعى (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م)
نورمان كانتور:
- التاريخ الوسيط ـ البداية والنهاية
ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم "جزءان" (دار عين، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢م).
هسى (ج.م) :
- العالم البيزنطى ، ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد
(دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٧م)

المصادر والمراجع الأجنبية:

Ann Comnena :

- **Alex, TrAnslated by E.R.A.Sweter Penguin, 1979 .**

Atiya .A.S:

- **A History of Eastern Christianty, London, Notre Dam, 1968.**

EVSEBIVS:

- **Historia Ecclesiastica: Nicene 12, 73-381 (= P . G . XX 45 – 906).**
- **Vita Constantine: Nicene 12, 473 – 580 (= P. G . XX905 – 1232).**

Jones (A. H. M.):

- **Constantine and the conversion of Europe, penguin, 1972.**

Macmullen (R.):

- **Constantine, New York, 19971.**

Saint Augustine:

- **The city of Good , Baltimore, penguin, 1972.**

Thompson (J. W.)

- **History of the Middle Ages , 300 – 1500, London, 1931.**

Vasilieve (A.):

- **Histoire d, L'Empire Byzamtine 2 vols, paris, 1932.**

Walson (H.) The philosophy of the church fathers, Harvard university, 1970.

حتمية الوحدة بين مصر والشام

فى ضوء أحداث الحملة الصليبية / البيزنطية

على دمياط فى سنة ٥٦٤ـ ٥٦٥هـ /١١٦٩م



تقدمة :

لم تنل مرحلة زمنية فى التاريخ الإنسانى من البحث والدراسة التحليلية والنقدية مثلما نالت "الحروب الصليبية" منذ بدأت دعوتها البغيضة الأولى فى كليرمون بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م وحتى انتهت فى وجودها السياسى والعسكرى بسقوط آخر المستوطنات الصليبية فى عكا ١٢٩١م .

وعلى أرض فلسطين قامت أول مملكة صليبية فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م تحت حكم جودفرى دى بويون (Godfrey de Bouillon) وهى المملكة التى لم يعترف بها البيزنطيون (الروم الأرثوذكس) الذين عانوا من حملة الصليب (الفرنجة الكاثوليك) الأمرين ولاقوا من الأضرار الجسام على أيديهم ما لا تقل كثيراً عما لا قاه المسلمون والمسيحيون الشرقيون فى بلاد الشام ومصر .

ولأن المشروع الصليبى قد تم تنفيذه من جانب أرباب السلطتين الدينية والزمنية فى الغرب الأوربى بطريقة عدوانية انتهازية اتخذوا فيها الصليب - بهتاناً وزوراً - وسيلة شرعية أخلاقية لتحقيق أهداف غير شرعية ولا أخلاقية ، مما أفرغ المثال الصليبى من مضمونه الدينى القائم على السلام والفداء والإيثار ليفرز واقعاً مأساوياً يقوم على الحرب والاستغلال والأنانية ، فإن المفارقة التى تثير فضول الباحث تكمن فى هذا التحالف بين المعسكر الصليبى بقيادة عمورى الأول Amalrci I (١١٦٢- ١١٧٤م) والمعسكر البيزنطى بقيادة مانويل كومنين Manuel - Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠م) بغرض شن حملة صليبية على مصر لضمها إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية وبهذا ترجح كفة الصليبيين فى مواجهة جبهة الشمال فى بلاد الشام.

وكما يقولون فإن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن إذ تحولت النتائج المرجوة من تلك الحملة إلى الاتجاه المعاكس فى المعسكر الإسلامى مما كان له تأثير مباشر فى تحول المجاهدين المسلمين من سياسة الدفاع العسكرى إلى سياسة الهجوم الشامل على المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام من خلال توحيد الأهداف والوسائل بين جبهتى الشمال والجنوب لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع الإسلامى / الصليبى وهو ما تكشف عنه هذه الدراسة .

المرحلة التحضيرية :

لم يكن الملك عمورى الأول (أماليك) (ت ١١٧٤م)مبتدعاً عندما شرع فى غزو مصر بالتحالف مع الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (ت١١٨٠م) بل سبقه إلى ذلك ملوك بيت المقدس من أمثال بلدوين الأول ، وفولك الأنجوى وبلدوين الثالث فى الفترة الزمنية الممتدة من بداية القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وحتى وفاة بلدوين الثالث فى سنة ١١٦٢م / ٥٥٧ هـ ، والتى كانت فترة تحضيرية لمرحلة شرسة من مراحل الصراع الإسلامى / الصليبى .

لقد كانت الغزوات التى حدثت فى عهود أسلافه ضرباً من ضروب الاستطلاع الحربى دون الدخول فى مواجهات قتالية استراتيجية على غرار ما حدث فى عهد " عمورى " فى الفترة من سنة ١١٦٣إلى سنة ١١٦٩م حيث دخل فى صراع مرير مع خصمه " نور الدين محمود "(ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م) بغية السيطرة الكاملة على مصر باعتبارها بؤرة الانطلاق نحو السيادة على كل ولايات وممالك الشرق وكأن لسان حال " عمورى " فى مواجهة "نور الدين" يقول :

"إن ملكها نور الدين لا يبقى للفرنج فى بلادهم مقام ، بل إنه كان يصرح لأمرائه دون استحياء بأن ضياع مصر من أيدى الصليبيين وصيرورتها إلى حاكم دمشق يعنى "هلاك الفرنجة وإجلاؤهم من أرض الشام وأنها إن آلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه " .

ويبدو أن ثمة نوعاً من التوافق فى الخواطر السياسية والعسكرية بين المتنافسين على حكم مصر إذ يصرح نور الدين محمود فى أعقاب انقضاء مجلس المشورة الصليبى بقوله لمرؤسيه :

" إننا إن أهملنا أمر مصر ملكها الفرنج ولا يبقى معهم مقام بالشام " .

إذن مسألة غزو مصر والسيطرة على مقدراتها لم تعد تقبل التروى أو الانتظار من جانب الجناحين العسكريين للقوات الإسلامية والصليبية حتى وإن اضطر عمورى أن يدفع مهراً غالياً لزواجه من إحدى أميرات الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية فى سبيل كسب تأييد الدولة البيزنطية المارقة .

بل إن " عمورى " الذى واجه عقبات بالغة الصعوبة نحو ولاية مملكة بيت المقدس كان يعزف هو ومقدم الاسبتارية جيلبرت دى سيلى Gilbert de Seli على وتر حساس جداً اسمه "مصر" حتى أن جيلبرت هذا كان حريصاً على شحذ همم البارونات والفرسان وسائر القوى الأخرى لتأييد "عمورى" متوعداً الجميع بأن التاج إذا لم يوضع على رأس هذا الكاثوليكى فإنه سوف يصير من نصيب أحد حكام المسلمين وبعدها سيصبحون عبيداً لهؤلاء المسلمين " الكفار " .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مقدم الاسبتارية جيلبرت - هو المسئول الأول عن تشجيع الملك عمورى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م لتجهيز أول حملة عسكرية فى عهده لغزو مصر ، وأمده بالمال والفرسان مقابل أن يمنحه الملك هو وفرقته مدينة بلبيس وأجوارها إذا تحقق النصر للصليبيين على المسلمين .

وقد نجح عمورى فى غزو الدلتا فى سبتمبر ١١٦٣م حتى وصل بلبيس وحاصرها ، ولكن فيضان النيل فى الأراضى المصرية أجبر الملك وجنوده على الانسحاب دون أن يحقق أى نصر يذكر فى تلك الحملة .

والواقع أن جبهة الشام كان لها دور بالغ الأهمية فى انسحاب القوات الصليبية من مصر عندما قرر نور الدين محمود مهاجمة معاقل الصليبيين فى الشام فى نفس توقيت الهجوم على مصر فى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م مما شتت الطاقة القتالية للاسبتارية بين جبهتين من ناحية وخفف الضغط الصليبى على القوة النورية بقيادة أسد الدين شيركوه فى مصر من ناحية أخرى ، وبالتالى كان عمورى مضطراً

للنكوص على عقبيه والعودة سريعاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات الصليبية فى الشام ، وإن كانت هذه الحملة قد فشلت فى تحقيق الهدف الرئيس وهو الاستيلاء على مقاليد الأمور فى مصر إلا أنها حققت نتيجة مهمة ، وهى معرفة الصليبيين بمدى ضعف جبهة الجنوب (مصر) وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها فى أى وقت مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر واستنزاف مواردها المالية والطبيعية .

وفى هذا الأثناء لجأ " شاور" إلى نور الدين محمود فى الشام ليستنجد به ويرغبه فى الديار المصرية وقال له : " أكون نائبك بها " وتعهد له بثلث دخل البلاد إن هو مكنه من العودة إلى الوزارة وفعلاً أرسل نور الدين حملة مع شاور إلى مصر فى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م بقيادة أسد الدين شيركوه الذى كان بصحبته ابن أخيه صلاح الدين وعندئذ استنجد الوزير ضرغام بالملك الصليبى عمورى ولكن جيش نور الدين كان أسبق فى الوصول إلى أسوار القاهرة فى أول مايو ١١٦٤م بعد أن تخلى الجيش عنه ، وقتل عند محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة .

وسرعان ما تنكر " شاور " لوعوده التى قطعها على نفسه فى مقابل مساندة نور الدين محمود له وتمكينه من كرسى الوزارة بعد مقتل خصمه ضرغام فرفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه بل وطلب منه الرحيل عن مصر ، ولكن شيركوه رد على هذا التصرف الجاحد باحتلال بلبيس والشرقية مما جعل شاور يحذو حذو سلفه ضرغام فى الاستنجاد بالصليبيين مقدماً للملك عمورى الأول كافة التنازلات والوعود التى بلغت فى مهانتها حد الالتزام بتوفير"علف الدواب".

ولم يكن أمام الملك عمورى سوى الموافقة لما فى ذلك من تحسين للأوضاع الاقتصادية لمملكة بيت المقدس عن طريق الأموال الوفيرة التى سوف يدفعها شاور

وبقاء نفوذهم بالشام فضلاً عن إجهاض فكرة قيام وحدة مصرية شامية ضد الصليبيين .

ولكن هذه الحملة لم تسفر عن شئ سوى الاتفاق على أن يغادر الجيشان الإسلامى والصليبى مصر وكان ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤م .

ومنذ ذلك الحين ومصر تداعب خيال كل من عمورى وأسد الدين شيركوه الذى تمركز بقواته فى بلبيس بعد موافقة شاور على شروطه والتى تمثلت فى أن يدفع للملك الصليبى ٤٠٠,٠٠٠ دينار على دفعات فى فترات محددة مقابل التزام عمورى بالبقاء فى مصر حتى يتم طرد شيركوه وجيشه من مصر وهو ما وافق عليه الخليفة الفاطمى " العاضد " الذى كان يحتضر سياسياً .

وقد انتهت هذه الحملة بعقد صلح بين المسلمين والصليبيين بعد أن تكبد جيش عمورى الأول خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات والأموال .

والواقع أن أهم نتائج هذه الحملة ما جاء فى رواية ابن شداد من أن " أسد الدين شيركوه " عاد إلى الشام وقد انضم إلى قوة الطمع فى البلاد وشدة الخوف عليها من الإفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذى عرفه " وهى عبارة بليغة فى فهم عملية الصراع بين الفرقاء .

وأما بالنسبة للملك الصليبى عمورى فإنه عمل منذ فشله فى هذه الحملة على تقوية روابطه مع الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين وذلك بغية الإعداد لمشروع حملة صليبية بيزنطية تكون وجهتها مصر بعد أن علم من قواته المرابطة بمصر بأن الفرصة صارت سانحة تماماً لتنفيذ هذا المشروع الذى يفضى فى النهاية إلى احتلال مصر وتوظيف ثرواتها ومواردها فى القضاء على قوات نور الدين محمود فى الشام ، ودعم الوجود السياسى لمملكة بيت المقدس اللاتينية .

ويبدو أن الخليفة العاضد ووزيره شاور قد أفاقا متأخراً من غفوة العمالة والتواطؤ مع القوى الصليبية فطلبا النجدة من نور الدين محمود فى مواجهة الزحف الصليبى على مصر لاحتلالها من خلال حملة جديدة وصلت إلى القاهرة فى صفر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ولم تلتق مع الحملة التى أرسلها نور الدين محمود للمرة الثالثة بسبب تخوف عمورى من عواقب المواجهة ومن ثم فقد عاد إلى مملكته مذموماً مخذولاً وأما "شاور" فقد كانت عاقبته ضرب عنقه وحمل رأسه إلى الخليفة الفاطمى جزاءً وفاقاً على خيانته وغدره ونقضه للعهود .

والواقع أن سلسلة الحملات الصليبية والمعاهدات التى أبرمها الصليبيون مع الخلافة الفاطمية ممثلة فى الوزير " شاور" والتى بلغت منتهاها فى سنة ١١٦٧م بتلك المعاهدة المجزية قد تصور معها الأمراء والقادة الصليبيون أنهم قد صاروا قاب قوسين أو أدنى من احتلال مصر وضمها إلى أملاكهم فى بلاد الشام لتكون حصناً منيعاً لهم فى مواجهة القوى الإسلامية ومعيناً لا ينضب لمواردهم الاقتصادية والبشرية فى الشرق العربى ، إلا أن الرياح جاءت بما لا يشتهى " عمورى " إذ انهزمت قواته أمام قوات نور الدين محمود بقيادة " أسد الدين شيركوه " مما جعله يوافق مرغماً على عرض الصلح المقدم إليه من "شيركوه" مقابل الجلاء عن مصر وتبادل الأسرى .

وهذه الحالة من المد والجزر فى المواجهات بين الصليبيين والمسلمين فى تلك المرحلة التى سبقت سقوط الدولة الفاطمية وإعلان حكم الأيوبيين لمصر تحت رداء الخلافة العباسية - كان مرجعها فى الأساس الأول المواجهات الأخرى بين الطرفين فى جبهة الشام والتى كانت ترغمها على الهدنة والمصالحة من أجل إعادة تنظيم صفوفها ، وتعديل خططهما الحربية حسبما تمليه عليها الظروف هناك يدل على هذا أن " عمورى " بعد الصلح مع " شيركوه " عاد إلى الشام لتأمين

أملاك الصليبيين بعد أن قام نور الدين بالهجوم على بعض الحصون والقلاع ، وفى نفس الوقت عاد " شيركوه " بقواته لدعم قوات نور الدين تاركاً وراءه حلماً يداعب جفون المصريين فى قوة إسلامية تدافع عن حقوقهم المشروعة فى الحياة الآمنة المطمئنة ، وهو الحلم الذى يمكن تحقيقه من خلال وحدة جبهتى الشمال والجنوب فى الشام ومصر .

وهكذا انتهى أمر الوزارة الفاطمية فى مصر بقتل " شاور " وولده الكامل فى يناير ١١٦٩م وتولى شيركوه المنصب بتقليد من " العاضد " إلا أن الأول لم يلبث أن توفى بعد شهرين من ولايته فى رجب سنة ٥٦٤ الموافق ٢٣ مارس سنة ١١٦٩م وعندئذ خلفه " صلاح الدين " الذى كانت المصادر قد أظهرته " مجبراً لا بطلاً " خلال الحملات الصليبية الثلاث التى صحب فيها عمه أى أنه كان مكرهاً على المجئ إلى مصر بسبب ما لا قاه من شدائد ومخاطر فى غضون تلك الحملات وبخاصة الحملة الأخيرة التى كان فيها على موعد مع القدر بوفاة عمه وولايته الوزارة فى مصر.

التحالف الصليبى / البيزنطى لغزو مصر :

وفى هذه الأثناء كان الملك عمورى يشجع الإمبراطور البيزنطى على إعادة التحالف معه لغزو مصر واقتسامها فيما بينهما ، كما قام بمراسلة الفرنج فى الأندلس وصقلية طالباً منهم الدعم بالسلاح والأموال لأن الأمور لم تعد تحتمل التأخير إلا أن نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى وسائر القادة المسلمين كانوا على علم بتحركات الصليبيين وعزمهم على تكثيف الجهود والقيام بأكبر حملة

فـى سلسلة الحمـلات التـى شـنها عمـورى بعـد أن وعـده الإمبراطـور البيزنطـى بإرسال مساعدات بحرية تكون أزراً وسنداً للقوات الصليبية البريـة .

وقد أشـار ابن الأثير إلى أهميـة هذه الحملـة ومـا تمثلـه بالنسبة للصليبيين بقوله : " إن إفرنج الساحل قد أيقنوا بالهلاك ، لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر فكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرهما ، يستمد منهم ويعرفوهم ما تجدد من مُلك مصر،وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين ، ويشير وليم الصورى وهو أحد شهود العيان على أحداث تلك المرحلة الحرجة فى تاريخ الصراع الإسلامى الصليبى بما يؤكد مخاوف "عمورى" من تصاعد مد القوى الإسلامية فى كل من مصر والشام حيث يذكر أن الأسطول البيزنطى ظل قابعاً فى مياه قبرص فى انتظار تعليمات ملك بيت المقدس بالتحرك نحو دمياط وذلك بسبب شعور الملك الصليبى بأن قواته غير مهيأة للاشتراك فى هذه المرحلة وبخاصة فرقة الداوية التى دأبت على رفضها الاشتراك فى مثل هذه الحملات الفاشلة .

ولكـن " عمـورى " كـان يـدرك فـى ذات الوقـت أن تقاعسه عـن تسيير تلك الحملـة المشتركة سوف يطيح بكل آمالـه بعد أن خضعت كل البلاد الإسلامية لسيطرة نور الدين محمود وصارت مصر قاب قوسين أو أدنى من حكم البيت النورى فـى إطـار الوحـدة بـين جبهتـى الشمال والجنـوب (الشام ومصر) وبذلك يكـون من السهل محاصرة الصليبيين فى الساحل وتضييق الخناق عليهم وهو ما يخشاه " عمورى " وترتعد له فرائصه ، ومن ثم فإن هذه الحملة على دمياط ـ فى حالة نجاحها ـ تمثل له طوق النجاة فى بحر لجى يغشاه الموج من كل جانب ، ويصبح بعدها غنياً بفضل مصر عمن سواها من الدول الأوربية .

ومـن المهـم أن نـشير هنـا إلـى أن " عمـورى " لـم يلجـأ فـى حملتـه هـذه إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين إلا بعد أن أفرغ يديـه تمامـاً من إمكانيـة

مساعدة ملوك غرب أوربا له وبخاصة فرنسا التى كان يعتبرها موطنه الأصلى وأن مملكة القدس تابعة لها ، وبرغم توسلاته التى تكشف عنها مكاتباته التى يصف فيها المسلمين بالكافرين وأنهم " الأسد المفترس " الذى سوف تسقط " مملكة الرب " بين فكيه إذا لم يسرعوا لنجدتهم منهم بعد أن صار الأمر " يفوق الوصف ، والاحتمال " على قول أحد المعاصرين .

" ...، إن أفضالكم وأياديكم البيضاء التى لم تعرف شيئاً سوى العطاء والكرم ومن ثم فإننا نهيب بكم أن تفعلوا ما نحن على ثقة كاملة فيه ، أن تبذلوا وسعكم لدفع معاناة مملكة الشرق،....".

هكذا كانت توسلات عمورى لملوك الغرب الأوربى والتى لم تؤت ثمارها بسبب انشغالهم بصراعاتهم الداخلية - تعبيراً عن إفلاس مملكة بيت المقدس وعجزها عن الدفاع عن نفسها فى مواجهة حركة الجهاد الإسلامى ومن كان مجبراً - لا مخيراً - فى إراقة ماء وجهه أمام الإمبراطورية البيزنطية .

وفى تصورنا أن الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين لم يكن غافلاً عن رؤية عمورى من عرض التحالف معه لإرسال حملة مشتركة إلى مصر ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن أقل منه طمعاً فى مصر ، ولم لا؟ ألم تكن مصر يوماً جزءاً رئيساً من أملاك البيزنطيين فى الشرق؟ كذلك فإن الإمبراطور البيزنطى كانت له المساعى الحميدة من أجل التوفيق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية والتى لم تتوج بالنجاح ، فلم لا يكون صاحب الأيدى البيضاء على المسيحيين الكاثوليك فى صراعهم مع المسلمين كى يضمن لنفسه - خاصة - والإمبراطورية البيزنطية - عامة نوعاً من الوصاية على الأماكن المقدسة فى فلسطين ، بل إن - مانويل - قام - أثناء مرحلة التحالف مع مملكة بيت المقدس - بتجديد بعض

العمائر الكنسية فى القدس وبيت لحم فكان جديراً بأن ينقش اسمه على لوحة فى صحن كنيسة الميلاد تعبيراً عن امتنان الكاثوليك للإمبراطور البيزنطى الهمام .

وعلى أى حال فإن هذا التحالف المتناقض فى ذاته من خلال الخلفية الأيدلوجية للحركة الصليبية التى تُكن كُرهاً دفيناً للإمبراطورية البيزنطية لم يكن يحقق غايته فى ضوء الأحداث التى سوف نعرض لها ، والتى تكشف فى مضمونها عن روح العداء والأنانية من جانب القوات الصليبية فى تعاملها مع حليفها اللدود (الدولة البيزنطية) ، وكيف أن عمورى الأول كان مستعداً لاستخدام البيزنطيين وقوداً لنيران الحرب ضد المسلمين لكى ينفرد بثروات مصر وحده ، مثلما كان هو الحال فى كل مخططات الحركة منذ دعوة " إربان الثانى Urban II "فى نهاية القرن الحادى عشر والتى حاول أن يستخدم فيها " بيزنطة " درعاً مسيحياً شرقياً يدعم به أطماعه فى الشرق باسم الدفاع عن المسيح .

الخطة العسكرية :

كانت الخطة العسكرية للحملة الصليبية البيزنطية تتلخص فى اتخاذ عسقلان منطقة تمركز للقوات البرية والبحرية ومنها تنطلق القوتان فى اتجاه دمياط حيث تتولى القوات البرية (الصليبية) مهمة الحصار البرى للمدينة ، بينما تتولى القوات البحرية (البيزنطية) مهمة الحصار البحرى وبذلك يتم تطويق المدينة " براً وبحراً " وإحكام الحصار عليها من كل جانب حتى تستسلم ، وتصبح قاعدة عسكرية يمكن من خلالها مواصلة زحفهم نحو القاهرة .

ومن المعروف جغرافياً أن " دمياط " هى أقرب الموانئ المصرية إلى "القدس " ثم "قبرص " مقر الجيوش الصليبية . وبالتالى فإن الاستيلاء عليها

كان يمثل مكسباً استراتيجياً كبيراً باعتبارها المدخل الرئيس والمباشر للعاصمة المصرية فإذا أضفنا إلى ذلك موقع دمياط على مصب النيل الشرقى (دائرة عرض ٣١,٢٥° شمالاً ، وخط طول ٣١,٤٨° شرقاً) والذى جعلها سوقاً تجارية دولية بين الشرق والغرب .. أدركنا أهمية تلك المدينة فى المنظور الاقتصادى للحملات الصليبية فى أواخر العصور الوسطى حتى أن أحد المؤرخين اعتبر سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين " مصيبة ليس لها مثيل " بينما يرى مؤرخ آخر أن من يملك دمياط فإنه يستطيع أن يملك سائر الديار المصرية ، والقدس ، وسائر بلاد الشام .

المرحلة القتالية :

وقد وصلت القوات الصليبية إلى ساحل دمياط فى٣ صفر سنة ٥٦٥هـ/٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩ ، وظلت قابعة فى مياه البحر فى انتظار وصول الأسطول البيزنطى لمدة ثلاثة أيام دون أن تستطيع هذه القوات مجتمعة دخول دمياط بسبب وجود السلاسل الحديدية الممتدة فى الماء بعرض الميناء مما دفع الصليبيين إلى الشروع فى بناء برج خشبى من سبعة طوابق كى يتمكنوا من مشاهدة المدينة ومراقبة تحركات المقاومة الإسلامية ، وفى الوقت نفسه كانوا يقذفون المدينة بالأحجار بواسطة المنجنيقات التى أسفرت عن هدم كنيسة العذراء .

ويذكر لنا وليم الصورى أن القوات الإسلامية قامت ببناء برج خشبى متحرك وشحنوه بالمقاتلين ، مما أضعف الروح المعنوية لقوات التحالف خاصة أمام المقاومة الباسلة لشعب دمياط ومما زاد حالة قوات الحملة سوءاً النقص الشديد فى الزاد وبخاصة القوات البيزنطية التى دفعها الجوع المميت إلى التهام أوراق الشجر من أجل دفع شبح الموت عنها .

بل إن هذا المؤرخ المعاصر يطالعنا فى رواياته بمشاهد متناقضة فى المعسكرين الإسلامى والصليبى تكشف فى مجملها عن قوة العقيدة فى نفوس المسلمين من القوات النظامية أو الشعبية وكذلك عن الإفلاس العقيدى والضعف المعنوى الذى استشرى فى صفوف القوات المتحالفة إلى حد أن قوات عمورى كان لديها من الطعام ما يكفى تقديم بعضه إلى الجنود البيزنطيين الذين يتضورون جوعاً ومع هذا كانت أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بعد أن بسط الإمبراطور البيزنطى لهم يده كل البسط ومما زاد الأمر سوءاً هبوب الرياح العاتية مما أدى إلى اشتعال الحرائق وحرق بعض السفن البيزنطية وتفرق القوات وانهيار الروح المعنوية للجنود ، فى الوقت الذى لم يحرك الملك عمورى ساكناً ، ولم يبادر بتقديم أى نوع من المساعدة لحلفائه البيزنطيين وكأنما كان يريد هلاك الحلفاء كى يستأثر ـ وحده ـ بالفريسة وهو ما فطن إليه قائد القوات البيزنطية كونتوستفانوس Conto - Stephanus الذى صمد إلى النهاية من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرواح جنوده .

وفى ذلك التوقيت كانت قوات صلاح الدين الأيوبى ـ وزير مصر ـ تسرع الخطى إلى دمياط على رأس جيش بقيادة أخيه تقى الدين عمر ، وخاله شهاب الدين الحارسى ، وقام بإرسال عدد كبير من السفن الحربية للدفاع عن المدينة فى مواجهة الأسطول البيزنطى ومن ناحية أخرى قام نور الدين محمود بالهجوم على معاقل الصليبيين فى الشام كى تنقسم القوات الصليبية بين الشام ومصر من ناحية وتنقطع الإمدادات العسكرية عن قوات الحملة المرابطة فى دمياط من ناحية أخرى فإذا أضفنا إلى هذا الدعم المادى من جانب الخليفة العاضد لصلاح الدين أدركنا حقيقة غاية فى الأهمية وهى أن نور الدين محمود كان يمثل مع صلاح الدين الأيوبى زاوية تكاملية فى مواجهة القوى الصليبية وليس زاوية عكسية كما حاولت أقلام

بعض المؤرخين المعاصرين تصويرها من خلال روايات ضعيفة فى سندها وهشة فى مضمونها ،وغير متوافقة مع العلاقة التسامتية والأهداف المشتركة فى الفكر السياسى والعقيدى لهذين القائدين الفذين اللذين كانا يعملان من أجل هدف واحد هو تحرير القدس وسائر الأراضى الإسلامية المحتلة من خلال توحيد جبهتى الشمال والجنوب (الشام ومصر) كامتداد لخط الجهاد الإسلامى الذى وضع نقطة البداية فيه القائد المجاهد عماد الدين زنكى فى بداية القرن السادس الهجرى /الثانى عشر الميلادى وسار على نهجه ابنه نور الدين محمود ، ومن بعده تلميذه النجيب صلاح الدين الذى توج جهود سلفيه فى نهايات هذا القرن بالنصر المؤزر على الصليبيين فى حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ثم تحرير القدس الشريف وتأكيد هويتها العربية الإسلامية .

حتمية الوحدة المصرية الشامية :

كان كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى يريان حتمية الوحدة بين الشام ومصر وأنها السبيل الوحيد لتحرير القدس ودرء كافة الأخطار المحدقة بالعالم العربى الإسلامى إلا أن صلاح الدين كان يرى مصر المركز الرئيس لإدارة مسرح العمليات الحربية .. وبالتالى لابد أن يكون بها جيش قوى ونظام سياسى متين لا ينقسم على نفسه فى ولائه لروح الجهاد الإسلامى مثلما كان الأمر مع النظام السياسى الفاطمى المزعزع ، وهو ما تحقق بالفعل فى مواجهة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نور الدين محمود بعد سقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م كان حريصاً على توحيد الجبهتين الشامية والمصرية

فى إطار الخلافة العباسية ، ولذا فإنه أرسل للخليفة المستضئ يخبره بما آلت إليه الأمور وبما تحقق على يديه من انتصارات لمصلحة الإسلام والمسلمين ، ودوره البارز فى محاربة الفرنجة والروم والقضاء على مناطق نفوذهم فى بلاد الشام .

ومما يدل على عظم نفوذ الدولة النورية فى الشام والدولة الأيوبية فى مصر أن الخليفة العباسى استجاب لمطلب نور الدين محمود فى ضم بعض المناطق الحيوية فى العراق إلى جبهة الشام وهى درب هارون وصريفين على نهر دجلة وهما من المناطق المتميزة جغرافياً واقتصادياً والتى مكنته من تقوية الجبهة الشامية من ناحية ، ومد نفوذه السياسى فى عمق (العراق) أراضى الدولة العباسية من ناحية أخرى .

ونحن لا نميل إلى كثير من الروايات المتناثرة فى بطون بعض المصادر العربية ، والتى تثير شهوة المستشرقين - من حيث اهتمامها بظواهر الأسباب التى أدت إلى فتور العلاقة بين نور الدين محمود (الشام) وصلاح الدين الأيوبى (مصر) باستثناء الرواية التى ذكرها ابن الأثير فى " الكامل " ونقلها عنه ابن تغرى بردى فى " النجوم " والتى تشير إلى حكمة صلاح الدين السياسية ورفضه الدخول فى مواجهات عنيفة مع سيده نور الدين معتمداً فى ذلك على مشورة والده نجم الدين أيوب إذ أن هذه الروايات لا تتناسب مع طبيعة الدور البطولى لكليهما فى الجهاد ضد الصليبيين ودفع الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامى مضحين فى ذلك بكل غال ونفيس ، فكيف يكون الخلاف بينهما على " هدية " أو شئ من " الغنائم " ؟ لقد اختلفا - إن جاز التعبير - فى اتفاقهما على وحدة العرب والمسلمين وكيفية الوصول إلى هذا الهدف الأسمى من خلال وحدة الشام ومصر أولاً وقبل كل شئ وهو ما تحقق بالفعل بفضل الجهود الدورية النورية والصلاحية المظفرة .

كذلك فإن أحداث هذه الحملة كشفت - بما لا يدع مجالاً للشك - عن حقد دفين فى نفوس الفرنجة الصليبيين تجاه حليفهم اللدود " البيزنطيين " ، وعن سوء نية عمورى الأول حين تباطأ فى الدخول إلى المعركة كى يضع البيزنطيين فى وجه المقاومة الإسلامية التى ألحقت بهم خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات ومن ثم يتيسر له تحقيق أهدافه اللعينة على حساب الحليف البيزنطى مانويل كومنين الذى تصور أنه يمكن أن يكون له نصيب الأسد فى هذه الحملة دون أن يدرى أنه سيصبح جزءاً من الفريسة الكبرى التى لم ينلها عمورى هو وقواته وعادوا أدراجهم بخفى حنين أو حسب تعبير ابن الأثير " ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين " .

ويبدو أن القائد البيزنطى " كونتو ستفانوس " كان محقاً فى كلماته التى ألقاها على مسامع جنوده عندما حلت بهم الكارثة فى عرض البحر على ساحل دمياط ، وأدركهم الموت من كل جانب والتى يقول فيها :

" إن البقاء فى هذا المكان طويلاً لأمر مفجع ، كما أن عودتنا خاوين الأيدى دون أى إجراء هجومى ضد العدو (المسلمين) لهو مذلة ، ولكن الأسوأ من هذين الأمرين والأكثر سخرية هو محاولة إقناع رجل (عمورى) ليس فقط غير جدير بحكم الروم وإنما أيضاً عديم الكفاءة لقيادتنا فى مواجهة أعدائنا ، ألم تلاحظوا أن الملك الذى أقام معسكره بعيداً عن معسكرنا ولم يتحرك منه خطوة واحدة بوصفه محارباً وحليفاً لنا ، يتصرف كما لو كنا استعنا به كى يكون متفرجاً وليس كمنفذ للأوامر العسكرية ".

لقد تأكدت هواجس وشكوك البيزنطيين مع توالى الحملات الصليبية فى هذا العداء اللاتينى الدفين للدولة الرومانية الشرقية والذى تحول إلى أمر واقع

فى سنة ١٢٠٤م على أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة عندما صرع الصليب الكاثوليكى صليب الأرثوذكس .

نتائج الحملة على المعسكرين الصليبى والإسلامى :

لقد انتهت الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط بالفشل الذريع ، وكان الحصاد بالنسبة لمملكة بيت المقدس بقيادة عمورى الأول ، والإمبراطورية البيزنطية بقيادة كونتوستفانوس هشيماً تذروه الرياح التى أجهزت على الأسطول البيزنطى عندما هبت عاصفة بحرية عاتية أهلكت الكثير من الأرواح والسفن والمعدات فى رحلة العودة البائسة بعد أن وافق صلاح الدين على الصلح الذى عرضه عليه الحليفان بعد حصاره لمدينة دمياط دام خمسين يوماً ، أثبتت فيه المقاومة الإسلامية النظامية والأهلية قدرتها على التصدى لأى قوة عسكرية ما دامت الجهود العربية متحدة مادياً ومعنوياً فى مواجهة الأعداء ولذلك فإن من أهم نتائج تلك الحملة بالنسبة لصلاح الدين الأيوبى أنها زادته إيماناً بأهمية مصر فى إدارة عملية الصراع الإسلامى الصليبى من ناحية وحتمية توحيد الطاقات الطبيعية والبشرية لجبهتى الشام ومصر ضد كافة التحديات والعداءات الخارجية وهو ما سعى حثيثاً وبلا تردد نحو تحقيقه برغم ما تعرض إليه من مخاطر وافتراءات تصدى لها كالطود العظيم فى مواجهة رياح الفتن والضغائن .

ويبدو أن صلاح الدين قد شرع فى استثمار نتائج هذه الحملة أن يركن إلى مسألة المهادنة مع الأعداء فقام بالهجوم على المعسكر الصليبى فى بلاد الشام وتمكن من استرداد " غزة " سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م واتجه بعدها جنوباً للسيطرة

على الخط التجارى الممتد من أعلى خليج العقبة (أيلة) وحتى جنوب البحر الأحمر (اليمن) .

وتشير المصادر الأجنبية إلى أن الناصر صلاح الدين الأيوبى تحول من الدور الدفاعي إلى الدور الهجومي ليس فقط فى إطار العمليات الحربية على جبهة الشام وطول ساحل البحر الأحمر بل أيضاً فى إطار العلاقات السياسية والاقتصادية خاصة بعد استقرار أمور الحكم له فى القاهرة التى سوف تصير فى غضون بضع سنوات - بعد وفاة نور الدين محمود سنة ١١٧٤م - أقوى عاصمة إسلامية للدولة الأيوبية المترامية الأطراف ، فتذكر لنا أن صلاح الدين بعد تأمينه وسيطرته على البحر الأحمر اتجه شمالاً إلى حوض البحر المتوسط مهدداً بالقيام بحملات بحرية ضد أملاك الإمبراطورية البيزنطية إذا لم يرسل إليه الإمبراطور جزية سنوية .

ويبدو أن الوزير صلاح الدين الأيوبى كان على موعد مع القدر بعد أن فرغ من ضبط مقاليد الأمور فى مصر والتى كان أخرها التصدى لحملة وليم الثانى ملك صقلية التى وصلت إلى ميناء الإسكندرية فى٢٦ ذى الحجة سنة٥٦٩هـ/١١٧٣م وكذلك إخماده لثورة كنز الدولة فى جنوب مصر التى كانت آخر محاولة لإحياء الدولة الشيعية (الفاطمية) فى مصر .

فما كاد صلاح الدين أن يفرغ من درء هذه الأخطار حتى وجد نفسه فى مواجهة أكبر مشكلة لتحقيق مشروعه الوحدوى بين جبهة الشمال فى الشام وجبهة الجنوب فى مصر إذ توفى السلطان نور الدين محمود فى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وذلك فى أعقاب وفاة عمورى الأول ملك بيت المقدس وقد خلف نور الدين فى الحكم ابنه الصالح إسماعيل الذى كان قاصراً عن إدارة أمور الدولة بمفرده نظراً لصغر سنه مما أحدث نوعاً من الفراغ السياسى والخلافات الداخلية

حول الوصاية على العرش ، والتى غالباً ما تكون النذر الأولى لانهيار أى دولة وعودتها لنقطة البدء فى بنائها السياسى ، ولذا كان لزاماً على صلاح الدين القدوم إلى دمشق ، وإن كان صلاح الدين لم يشأ أن يظهر رغبته الجامحة فى السير إلى الشام أمام هؤلاء الأمراء حتى لا يضعف حماسهم فى التعاون معه لإعادة الاستقرار إلى البلاد وتوحيد الجبهة الداخلية الشامية ، فتوجه إلى " أيلة " وكان أميرها من جملة الأمراء الذين وجهوا إليه دعوة للقدوم إلى الشام ، ومنها إلى " دمشق " التى دخلها فى نهاية عام ١١٧٤م دون حصار معلناً ولاءه لابن سيده نور الدين محمود .

هكذا بدأ مشروع الوحدة بين مصر والشام والذى كان نواة الوحدة الإسلامية الكبرى من النيل إلى الفرات ، وهو نفس المشروع الذى كانت تتطلع إليه مملكة بيت المقدس تحت رعاية أرباب السلطتين الزمنية والدينية فى الغرب الأوربى / الكاثوليكى .

لقد كان الصراع على السلطة فى الشام ينحصر فى ثلاثة عواصم كبرى هى : الموصل وحلب ودمشق ، وكانت الموصل يحكمها الملك سيف الدين غازى وأما حلب فكان يحكمها شمس الدين ابن الداية ، بينما كانت دمشق يسيطر عليها قائد الجيش شمس الدين محمد بن المقدم ، وتنافس الثلاثة من أجل هدف واحد وهو ضم الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود إلى وصاية أحدهم ليحكم من خلاله بلاد الشام بأسرها .

أما صلاح الدين فقد بدأ مشروعه الوحدوى بإسباغ الصفة الشرعية على نظامه السياسى فأرسل إلى الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله فى بغداد يعرض عليه ما أنجزه من الفتوحات والجهاد ضد الصليبيين ، وإنهاء حكم الشيعة

فـى مـصر ، وإعـادة الخلافـة العباسـية إلـى القـاهرة ، طالبـاً منـه تقليـداً بحكـم مـصر والشام واليمن وما يضاف إليها بالفتوحات .

وفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م أتت رسل الخليفة العباسى بالتشريف والأعلام بالسلطة على مصر والشام وغيرهما لصلاح الدين الذى شرع فى تنفيذ مشروعه بالقضاء أولاً على الخلاف المقدم بين أمراء الشام المتنافسين على مصالحهم الشخصية إذ أرسل لهم قائلاً :" لو علم (الملك نور الدين)أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلىَ لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ..." .

كانت أولى خطوات صلاح الدين فى توحيد الجبهة الشامية والمصرية هى ضم دمشق بعد أن جاءت الاستغاثة من قائد الحامية (ابن المقدم) بسبب تهديدات الصليبيين وأطماعهم فى دمشق وأعمالها مثل بانياس ، فاتجه صلاح الدين واستولى عليها فى نفس العام وأعلن فى رسالته لأمير دمشق ابن المقدم " إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الأتابكى - أعلاه الله - إلا ما حفظ أصله وفرعه أو دفع ضره وجلب نفعه ، والوفاء إنما يكون بعد الوفاة .

ولما استقر حكم صلاح الدين فى دمشق سار إلى " حمص " واستولى عليها عنوة وأمن أهلها ، ثم رحل إلى " حماة " فاستلمها من صاحبها الأمير عز الدين جرديك صلحاً ومعها القلعة بعد أن أختلف معه صاحب حلب واتهمه بالتآمر .

وفى نفس السنة ٥٧٠هـ/ ٣٠ديسمبر ١١٧٤م اتجه صلاح الدين إلى حلب وحاصرها فى الثالث من جمادى الآخر فقاتله أهلها أشد قتال إلا أنه فشل فى دخولها بسبب الدعم المعنوى من الملك الصالح إسماعيل لأهالى حلب التى فرض عليها الحصار لأكثر من شهر ثم أمر برفعه بعد أن تحالف الصليبيون مع صاحب حلب

بعد أن أدركوا خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ، وتعرض صلاح الدين فـى هذه الأثنـاء إلـى محـاولات اغتيـال مـن جانـب طائفـة الإسـماعيلية الحـشاشين بزعامة " سنان " إلا أن صلاح الدين لم ينس لهم ذلك فأغار على منـاطق تجمعهم فى " السماق " .

وفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م نجح صلاح الدين فى هزيمة قوات حلب الموالية للـصالح إسـماعيل بقيـادة كمـشتكين ، والتـى تحالفـت معهـا قـوات الموصـل بقيـادة سيف الدين غازى وتكبيدهم خسائر فادحة وأسر منهم عدداً كبيراً ،وبعد حصار شديد على حلب استمر حتى نهاية سنة ٥٧١هـ وبداية ٥٧٢سنة هـ/١١٧٦م انتهت فيها المناوشات العسكرية باتفاق بين الجانبين يقضى بأن تكون حلب وأعمالها للـصالح إسماعيل وأن تكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوباً

ثم توجه بعدها صلاح الدين لتأديب طائفة " الحشاشين " وحاصرها بضعة أيام ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى عاصمة ملكه - القـاهرة - بعد أن ترك أخـاه تـوران شاه على رأس جيش قوى فى بلاد الشام ليستطيع أن يواجه به تهديدات الـصليبيين هناك .

وفى القاهرة أقام السلطان صلاح الدين الأيوبى - ملك مصر والـشام - حـوالى ست سنوات من عمره(٥٧٢- ٥٧٧هـ/١١٧٦-١١٨١م) سخرها فـى تحـصين القاهرة ، ودمياط ،والإسكندرية فضلاً عن الحصون والقلاع التى كانت من عوامل حماية البلاد ضد الأخطار الخارجية كما اهتم ببنـاء الأسطول المصرى ليكون درعاً بحرياً فى مواجهة غارات الصليبيين .

هكذا برهنت الأحداث الجارية فى مصر والشام على صحة رؤية صلاح الدين الأيوبى لنظرية الأمن العربى /الإسلامى والتى تمثلت فـى حتمية الوحدة بين جبهتـى الـشمال والجنـوب كـى لا تنفـرد القـوات الـصليبية بإحداهما علـى حـساب الأخـرى

وأن "مصر" يجب أن تكون مركزاً للعمليات الحربية لا مؤخرة للجيش باعتبارها المدخل الحقيقى لتحقيق النصر فى المعارك ومن ثم ينبغى أن يكون لها جيش قوى العدد والعدة لمواجهة التحديات العسكرية الصليبية .

وكان صلاح الدين أبعد فى رؤيته للأمن العربى/الإسلامى من سلفه نور الدين محمود عندما أدرك بثاقب ناظريه ضعف الدولة الفاطمية فى أيامها الأخيرة حتى صارت مصر خلالها قاب قوسين من احتلال الصليبيين لها بسبب تواطؤ الإدارة الفاطمية الحاكمة مع مملكة بيت المقدس وهو ما يكون عامل رئيس فى إضعاف جبهة الشمال لتصبح هى الأخرى فريسة سهلة أمام الصليبيين الذين يتلمظون شوقاً إلى تلك المساحة الجغرافية الكبرى الممتدة من غرب آسيا الصغرى وحتى الشمال الشرقى لأفريقية ، بعد أن حصرتها المقاومة الإسلامية فى الشريط الممتد من خليج الإسكندرية فى الشمال وحتى العقبة على البحر الأحمر .

لقد نجح صلاح الدين فى إقرار نظرية الأمن العربى /الإسلامى عن طريق توحيد جبهتى الشمال والجنوب بحيث بات على مملكة بيت المقدس أن تركز جهودها فى تأمين مستوطناتها من خلال تكثيف المنشآت والتحصينات والقلاع الحربية للدفاع عن نفسها بعد أن حاصرتها القوات الإسلامية وهددتها فى العمق بسبب قصر الخطوط الدفاعية الصليبية وقلة مواردها البشرية بحيث أصبحت التحصينات القوية والأسوار العالية هى البديل الطبيعى لهذا العجز فى عملية الدفاع والتأمين لحدود مملكتهم فى مواجهة موجات الهجوم للقوات الإسلامية من " الشمال " فى الشام و"الجنوب" فى مصر.

ومن الأهمية بمكان أن ننوه إلى حقيقة بالغة الدلالة فى الفكر السياسى لكل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى هى : أن "مصر" بجانب ما تتمتع به من موقع جغرافى حيوى وما تحويه من موارد وفيرة ، تتميز دون سواها

من بلدان العالم الإسلامى وبخاصة بلاد الشام بالوحدة العضوية لشعبها وكذلك الأساس الدينى المستقر بين مسلميها ومسيحييها - وهى الحقيقة التى أدركها صلاح الدين بصورة عملية حين مجيئه إلى مصر فى صحبة عمه " شيركوه " والتى طاف خلالها بأرجاء مصر شمالاً وجنوباً وتعرف طبائع المصريين التى تغرى أى قائد يريد أن يأمن على حكمه ، ويتطلع إلى إقامة دولة إسلامية كبرى تكون " القاهرة " عاصمة لها ومركزاً لقياد جيوشها .

وفى الوقت نفسه فإن مدن الشام - بوجه عام - كانت تتميز بعدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى حتى أن الصليبيين أنفسهم عانوا من ندرة الموارد الزراعية لدرجة أنهم كانوا يستوردون القمح من خارج بلاد الشام ، كما أنهم لم يجدوا فى السكان المسلمين والمسيحيين الشرقيين دعماً كافياً فى شئون حياتهم المعيشية خاصة أن المسيحيين أنفسهم كانوا طوائف مذهبية عديدة ، مثل الأرمن والنساطرة فى " الرها " والسريان فى " أنطاكية " والموارنة فى " طرابلس " وهم فى معظمهم من " الأرثوذكس " الذين اختلطوا طوعاً أو كرهاً بالمسيحيين الغربيين " الكاثوليك " الأمر الذى أدى إلى ظهور جيل مولد فى بلاد الشام عرف باسم " الأفراخ " (Pollani) فإذا أضفنا إلى هذه الفئات الاجتماعية الأقليات الأجنبية من الإيطاليين والفرنسيين والنمساويين وغيرهم ممن اشتغلوا بالتجارة أدركنا عدم الاستقرار والتآلف فى البناء الديموجرافى لبلاد الشام ، وهو ما أشار إليه أحد المعاصرين تفصيلاً فى كتابه " الاعتبار " حول " طبائع الإفرنج وأخلاقهم " وكيف أن بلاد الشام كانت مسرحاً لتفاعل العلاقات الاجتماعية المتضاربة بين الأوربيين والعرب وهو ما تبدو آثاره الثقافية على المجتمع الشامى حتى يومنا هذا .

... وبعد ، فإن أحداث هذه الحملة وغيرها من الحملات الصليبية تُطل على حاضرنا المعاصر بدروس عالية القيمة إذا كنا نؤمن - نحن الباحثين - بضرورة التاريخ فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها من جوانب الحياة الفردية والجمعية المرتبطة بقدراتنا الذاتية وإنجازاتنا الحضارية المشتركة على اعتبار أن المفاهيم التاريخية لا تتصل بالماضى فحسب بل هى سياج لأوضاعنا الراهنة " الحاضر " ورؤانا القادمة " المستقبل " ومن ثم فإن التاريخ - موضوع الدراسة - ينبئ أن عصر البطولة العربية يمكن أن يتجدد إذا أمسكنا بزمام أسباب هذه البطولة ، وأن زمن التفوق الحضارى يمكن أن يعيد نفسه ضمنياً إن - نحن - أدركنا ما تحويه الحضارة العربية الإسلامية من عناصر هذا التفوق وذلك الإبداع وفوق هذا وذلك فإن أحداث الصراع بين الشرق العربى الإسلامى ، والغرب الأوربى الكاثوليكى فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى تؤكد لنا أن الانتصارات التى أحرزها المجاهدون المسلمون فى هذه الحقبة التاريخية قد استندت - بقوة - إلى نظرية سياسية فذة تقوم على حتمية الوحدة بين الجبهات العربية الواقعة فى المنطقة الممتدة من النيل إلى الفرات ، ونبذ كل أشكال الفرقة والتشرذم السياسى والمذهبى إذا كنا - بحق - نريد استرداد هويتنا التائهة وشخصيتنا الضائعة وعقيدتنا الغائبة .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً :المصادر العربية :

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)
- الكامل فى التاريخ (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩م)
ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ،المطبعة الأميرية ، بدون تاريخ)
ابن حماد (أبو عبد الله محمد ، ت ١٢٣١م)
- أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم (القاهرة ، دار الصحوة بدون تاريخ)
ابن شداد (بهاء الد ين يوسف، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ،١٩٦٤م)
أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)
- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، الجزء الأول (بيروت ،دار الجبل ، ١٩٧٤م)
أبو الفدا (المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
- المختصر فى أخبار البشر (بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٧م) " الجزء الثانى "
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ،بدون تاريخ
ابن منقذ (اسامة بن مرشد بن على ، ت ٥٨٤هـ/١١٩٢م)
- الإفادة والاعتبار تحقيق فيليب حتى (بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٩٩م)
وليم الصورى
- الحروب الصليبية " ٤ أجزاء "ترجمة د. حسن حبشى (القاهرة ،١٩٩٤م)

ثانياً :المراجع العربية :

د/ إبراهيم خميس
- جماعة الفرسان الداوية (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٢م)
أرنست باركر :
- الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى (القاهرة ، دار النهضة العربية ،بدون تاريخ)
جوناثان رايلى :
- الاسبتارية فرسان القديس يوحنا ، ترجمة العميد ركن صبحى الجابى (دمشق ، ١٩٨٩م)
د/ حسن حبشى
- نور الدين والصليبيون (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨م)
د/رأفت عبد الحميد:
- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق - بحث فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط
(القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥) ص ٢٢٦-٢٥٧.
- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية (القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٨م)
ستيفن رنسيمان
- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى (بيروت ، ١٩٩٣م)

د/سعيد عبد الفتاح عاشور
- مصر والشام فى عصر الأيوبين والمماليك (القاهرة ، ١٩٧٢م)
- الحركة الصليبية " جزءان " (القاهرة ، ط ٣، ٩٣، ١٩٩٧م)
- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (القاهرة ، ١٩٩٧م)
سميل . رسى
- فن الحروب عند الصليبيين ، ترجمة وليد الجلاء(دمشق - دار طلاس ، ١٩٨٥م)
د/ السيد الباز العرينى
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية(القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٣م " الجزء الأول")
د/ سيدة كاشف :
- صلاح الدين الأيوبى بطل وحدة الصف العربى الإسلامى (القاهرة ، ١٩٨٦م)
د/علية عبد السميع الجنزورى :
- هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة ،١٩٩٩م)
- إمارة الرها الصليبية (القاهرة ، بدون تاريخ)
د/ قاسم عبده قاسم (دكتور) :
- الأيوبيون والمماليك (القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٦م)
- الحملة الصليبية الأولى "نصوص ووثائق تاريخية " (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)
د/محمد ضيف الله بطاينه
- دراسات وبحوث فى جوانب التاريخ الإسلامى (الأردن ، مكتبة المنار ، ١٩٨٦م)
د/ محمد مؤنس عوض
- الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)
د/ محمود عمران
- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول
(القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥م)

د/ مصطفى الحناوى
- فرسان اسبتارية القديس يوحنا ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى
(القصيم ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٣م)

يوشع براور :
- عالم الصليبيين ، ترجمة د/قاسم عبده قاسم (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١م)
- الاستيطان الصليبى فى فلسطين ، ترجمة د/ عبد الحافظ عبد الخالق البنا
(القاهرة، دار عين ، ٢٠٠١م)

ثالثا :المصادر والمراجع الأجنبية:

Archer (T) :

-The Story of the Latin kingdom of jerusalem , London ,1894 .

Hamilton (B) :

-The Latin Church in the crusader states, London ,1980 .

Jonathan (P) :

- Aymeric ,patriarch of Antioch letter to Louis VII of France (1164).

- Translated and veprinted from the Original of European History (philadelphia : Department of History ,University of pennsylvania 1894.vol 1 .no 414-17 .

King (E) :

- The Kinghts Hospitalles in the Holy Land, , London ,1931 .

Kinnamas (J) :

- Deeds of John an Manuel Comnenus , New York ,1967.

Michael:

- Histoire des Croisades, paris ,1829 .

Schlumberger :

- Campagenes du Roi Amaury de Jerusalem En Egypte. , paris 1906 .

Vasiliev (A):

-A History of the Byzantine Empire 2 vol .Madison, Milwauke 1964.

Wiet :

- L' Egypte Arabe, paris 1937 .

Zoe (O) :

- The Crusades (Les croisades) translated from the French by Anne Carter , London ,1995 .



خصوصية مصر فى النظرية السياسية لحكم خلفاء صلاح الدين الأيوبى

فى ضوء أحداث الحروب الصليبية

(٥٨٩ـ ٦٤٧هـ /١١٩٣ـ ١٢٤٩م)



بوفاة صلاح الدين الأيوبى فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ/٤مارس سنة ١١٩٣م بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين من ناحية ، وتاريخ العلاقات بين الشرق العربى والغرب الأوربى فى العصور الوسطى من ناحية أخرى بعد أن توارت عن أنظار المؤرخين المعاصرين شخصية قلما يجود تاريخ الجهاد الإسلامى بمثلها .

لقد خَلَفَ من بعد صلاح الدين خلفُ أضاعوا ميراثه التاريخى الفذ فى مواجهة القوى الصليبية ، وتأسيس دولة شاسعة مترامية الأطراف وبدلاً من أن يتعاونوا على البر والتقوى حفاظاً على وحدة هذه الدولة العظمى تعاونوا بالإثم والعدوان على تقسيمها إلى مناطق منازعات وحروب داخلية فيما بينهم شغلتهم عن إتمام المشروع الحضارى الذى وضع لبنته صلاح الدين منذ قدومه إلى مصر فى أواخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وتعهده بالرعاية حتى آخر عمره بحيث ما كان له حديث ،ولا نظر ، ولا اهتمام ، ولا ميل ، إلا إلى من يذكره ويحث عليه على قول أحد معاصريه .

يقول ابن واصل (ت ٦٩٧هـ) :

" لما توفى السلطان الناصر - رحمه الله - استقر فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الملك الأفضل نور الدين على ، وبالديار المصرية وما ينسب إليها الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب وبلادها الملك الظاهر غياث الدين غازى ، وباليمن عمهم الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب" ...، هذا فضلاً عن بلاد وحصون كانت من نصيب عدد من بنى عمومتهم وأبنائهم مثل حمص والرحبة وتدمر وبعلبك وغيرها ".

ويشير المؤرخ فى سياق روايته إلى خصوصية مصر فى الأطماع السياسية لخلفاء صلاح الدين بقوله :

" وعند الملك العزيز بمصر جمهور العساكر من الصلاحية والأسدية والأكراد ، وهو ما أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلاتها ".

وعندما تطورت الأحداث فى مصر وحاولت بعض فرق الجيش انتزاع حكم مصر من الملك العزيز مستعينة فى ذلك برغبة الملك العادل فى الوثوب إلى دست السلطة مما دفعه إلى عقد الصلح بين الجيوش المتحاربة من ناحية والبقاء بجوار العزيز ليتصرف فى شئون مصر بوصفه حاكماً فعلياً للبلاد حتى شاءت التطورات التاريخية أن يلقى العزيز ـ ملك مصر ـ حتفه بعد رحلة صيد فى الفيوم فى ٢٦ رجب ٥٩٥هـ/١١٩٨م وكان قد أوصى بحكم مصر من بعده لابنه الملك المنصور محمد .

وقد استطاع العادل فى أعقاب وفاة ابن اخيه العزيز أن يستولى على مقاليد الأمور فى مصر متذرعاً بدهائه السياسى وبما اشتهر به من "المكر" و"الصبر" ومُلوِّحاً بالحرب دون الدخول فيها مع الملك الأفضل نور الدين الى دخل القاهرة فى ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م إذا أرسل إليه عمه إنذاراً نهائياً بعدم التدخل فى شئون مصر او الاستيلاء عليها ـ قائلاً له : " أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك " .

وفى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م دخل الملك العادل سيف الدين مدينة القاهرة ليكون وصياً على عرش مصر ثم ما لبث أن أعلن أمام جمهور الأمراء والفقهاء أحقيته بالسلطنة كاشفاً عن نيته المبيتة منذ وفاة أخيه الناصر صلاح الدين فى الإستيلاء على مصر ، وفى هذا يقول العادل :

" الملك ليس بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر رحمه الله ، غير أنى تركت ذلك إكراماً لأخى ورعاية لحقه" وهكذا استطاع العادل منذ اللحظات الأولى لحكمه أن يرسى قواعد النظرية السياسية القائلة بأن : " الحكم لمن غلب " وخصوصية مصر للحفاظ على هذا الحكم .

ونفهم من الرواية التى ذكرها ابن واصل أن الميراث الصلاحي قد وُزع بصفة أساسية بين أولاده الثلاثة : العزيز عثمان (مصر)، والظاهر غازى (حلب) والأفضل نور الدين (دمشق) بينما لم ينل عمهم "العادل" سوى الكرك والشوبك وبعض مناطق أعالى العراق وهى إقطاعات لم تكن تتناسب مع طموحاته السياسية ومواهبه الذاتية فى الإدارة والحكم والحرب . ومن ثم فإنه وظف مواهبه فى إزالة كافة العقبات التى تحول بينه وبين الوصول إلى عرش السلطنة وإعادة توحيد الدولة فى غضون بضع سنوات بعد أن باتت الولايات جميعها منفصلة عن بعضها مما يشجع القوى الصليبية المعادية على غزوها والانفراد بها واحدة تلو الأخرى .

ولاشك أن العلاقات المحتدمة بين الأخوة الأعداء من أبناء صلاح الدين وبخاصة العزيز عثمان فى مصر ، والأفضل نور الدين فى دمشق قد هيئت الفرصة غير مرة أمام عمهم العادل (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)لحكم مصر معتمداً فى ذلك على الوعد الدبلوماسى أحياناً كثيرة والوعيد الحربى فى بعض الأحيان - وهو ماتشير إليه المصادر المعاصرة جملة وتفصيلاً .

"ولما استقر الملك العادل بدمشق سير إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع له فى الملك الأفضل ويسأله الاجتماع به وسأله أن يصالح أخاه ويعود " .

ولأن العادل كان يعلم مسبقاً أن "مصر" تراود أحلام الأفضل صاحب دمشق فإنه لم يبخل عليه بدهائه ودبلوماسيته فى هذاالشأن وظل ينصحه

بالعدول عن منطق القوة العسكرية فى ضم مصر إلى أملاكه قائلاً له دائماً: "مصر لك متى شئت".

ومما يؤكد خصوصية مصر فى التوجهات السياسية لخلفاء الناصر صلاح الدين الأيوبى أن القوى الدينية والعسكرية فى غرب أوربا كشفت هى الأخرى عن توجهاتها السياسية والتى تمثلت فى الإعداد الجيد لحملة صليبية جديدة على "مصر" يكون هدفها المعلن "القدس" وهو ما أرخ له ابن واصل بقوله :

"ولما طال اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة فى ماذا يبدأون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً " .

وهذه الرواية تتسق تماماً مع ما ذكره ابن شداد فى معرض حديثه عن توازانات القوى بين المسلمين والصليبيين إذ يقول :

" ولما علم الأفرنج ما تم للسلطان من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة فاجتمع الفرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية " .

ومن استقراء الروايات السابقة يتضح لنا أن " الاستيلاء " على مصر كان هدفا رئيسا فى المنظور السياسى/الاقتصادى/العسكرى للقوى الحاكمة فى الغرب الأوربى والقوى الصليبية فى بلاد الشام ليس فى زمن خلفاء صلاح الدين الأيوبى فحسب ولكن منذ هزيمة الصليبيين فى معاركهم الشرسة مع القائد الفذ صلاح الدين (سلطان العرب والمسلمين) ، وربما كان الهدف النهائى للحملات الصليبية السابقة لهذه المرحلة التاريخية إلا أن الفجوة الشاسعة بين "جيل القوة" فى زمن "السلف" و"جيل الهشاشة" فى زمن "الخلف" ساعد إلى حد كبير على إبراز هذا الهدف الاستراتيجى وهو ما فطن إليه الملك العادل وخلفاؤه الذين اتبعوه فى فكره السياسى إلى نهاية العصر الأيوبى .

ومما يؤكد كذلك تلك الخصوصية فى الفكر السياسى لخلفاء صلاح الدين حرصهم الشديد على تأمين القاهرة والثغور المصرية بالقلاع والحصون والأبراج والأسوار لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب الصليبيين كما ركزوا على بناء أسطول قوى للدفاع عن الشواطئ المصرية وبخاصة فى دمياط ، والإسكندرية ورشيد وغيرها من المدن الساحلية .

والواقع أن البحرية المصرية قامت بدور حاسم فى الدفاع عن مصر ضد الهجمات البحرية الصليبية ونجحت فى التصدى لها والاستيلاء على عدد كبير من السفن المعادية المحملة بالمؤن والعتاد وأسر أعداد هائلة من البحارة الصليبيين مثلما حدث عند محاولة قوات الحملة الصليبية الخامسة غزو مصر واحتلالها عن طريق ميناء دمياط .

وكانت خطة الدفاع عن مصر ضد الحملات الصليبية نتيجة حتمية للحكام الأيوبيين فى مواجهة نتيجة حتمية مضادة من جانب الصليبيين وهى ضرورة الهجوم على مصر بعد أن تأكد لديهم استحالة الاسترداد الشامل لما فقدوه من أملاك - اغتصبوها فى فلسطين وسائر بلاد الشام فى زمن صلاح الدين - إلا بعد احتلال الأراضى المصرية بؤرة الثروات الطبيعية والمالية والبشرية التى تحقق لهم أحلامهم فى الشرق العربى /الإسلامى وتمكنهم من تثبيت أركان مملكتهم فى بيت المقدس .

وفى هذا المعنى يقول الكاتب اليهودى يوشع براور:

" إن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها وإجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة (بيت المقدس) عند حدودها القديمة ، وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى سوف تسحب حامياتها من الأرض المقدسة يمكن استعادة المملكة وإعادة تحصينها بفضل الجهود

الموحدة للعالم المسيحى ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التى سوف تدفعها مصر " .

إذن " مصر " كانت محور تفكير خلفاء صلاح الدين الأيوبى مثلما كانت محور تفكير باباوات الكنيسة الكاثوليكية وقادة الحملات الصليبية الذين أدركوا بعد معركة حطين فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م أهمية مصر فى ترجيح كفة الصراع بعد الفشل الذريع لأكبر حملة صليبية فى التاريخ الأوربى قادها ثلاثة من أعظم ملوك تلك الفترة(القرن الثانى عشر الميلادى)وهم:ريتشارد الاولRichard 1ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا وفردريك الأول بربروسا Frederick 1 إمبراطور ألمانيا

ولسنا مبالغين إذا قلنا أن ريتشارد الأول (قلب الاسد) قد أدرك هذه الحقيقة فى غضون معاركه مع صلاح الدين الأيوبى مما دفعه إلى عقد صلح الرملة فى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وفى ذهنه فكرة مختمرة هى ، أن من يرد سيادة الشرق فعليه بمصر أولاً وقبل كل شئ فهى المعين الذى لا ينضب فى المجال الاقتصادى وصمام الأمن فى المجال العسكرى .

لقد نجحت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى بيرين Jean de Brienne ملك بيت المقدس والمندوب البابوى بلاجيوس Pelagius فى الاستيلاء على مدينة دمياط (مفتاح مصر) فى ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعد حصار استمر تسعة أشهر أدى إلى سقوط برج السلسلة فى أيدى الصليبيين وهو ما اعتبره أحد المؤرخين المعاصرين "مصيبة كبرى" إذ أن هذا البرج هو "قفل الديار المصرية " ، ولم يكن بإمكان الملك العادل تحمل تلك الصدمة فمات أثناء الغزو بعد أن أصابته الدهشة من هول تلك الأحداث ، وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، وفى هذا يقول ابن واصل :

" ..، وعظم عند الملك العادل قصد الفرنج لمصر وخاف عليها خوفاً شديداً"

وفى الوقت الذى نجح فيه العادل فى توطيد دعائم حكمه باستيلائه على مصر " أعظم معاقل الإسلام" كانت فكرة الاستيلاء على القدس من الأيوبيين ماتزال عالقة بأذهان الصليبيين والأوربيين وحين رأوا الملك العادل يعيد ترتيب البيت الأيوبى أدركوا أن ذلك سوف يعود بهم إلى أيام الصحوة العقيدية والعسكرية زمن صلاح الدين الأيوبى . وأدركوا كذلك أن " مصر" سوف تغدو مركزاً للتموين الروحى والمادى لكل القوى الإسلامية ،وأن من يحتل مصر بمواردها وإمكاناتها البشرية والطبيعية يستطيع تحقيق السيطرة الكاملة على كافة الأمصار العربية الإسلامية وفى مقدمتها القدس .

ولذا لم يكن غريبا أن يفطن العادل الأيوبى إلى خصوصية مصر فى إدارة عملية الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وهو ما فطن إليه أيضا البابا إنوسنت الثالث Innocent III الذى أخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين والتى بدأت محاولتها منذ سنة ١٢٠١م عندما توجهت الفرق العسكرية الصليبية إلى البندقية كى تنقلهم سفنها الحربية إلى مصر ، ولكن بدلا من أن تتجه السفن إلى الثغور المصرية على البحر المتوسط اتجهت إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (القسطنطينية) على ضفاف البسفور . فى أكبر مهزلة عسكرية فى تاريخ الغرب الأوربى ، والتى مازالت كتابات المورخين والباحثين تتناول أحداثها فى إطار الاتهامات المتبادلة بين القادة الصليبيين .

ويصف لنا ابن أيبك فداحة الفاجعة التى أصابت حاكم مصر فى مقتل لحظة إبلاغه بسقوط دمياط فى أيدى الفرنجة بقوله :

" وفى أول جمادى الأولى (٦١٥هـ) أخذ الفرنج المنازل على دمياط وملكوا برج السلسلة . وكان هذا البرج قفل الديار المصرية فنفذ الملك الكامل إلى أبيه السلطان العادل صدر الدين شيخ الشيوخ يخبره بذلك ويستصرخه ويستنجده . فلما اجتمع به وكان على حطة من المرض فعرّفه . فدق (السلطان) بيده على صدر . فكان سبب وفاته " .

ولما مات العادل بدمشق فى ٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م خلفه فى حكم مصر ابنه الكامل ، الذى ورث معظم صفات أبيه بما فى ذلك منهجه السياسى الذى تجلى بوضوح فى عروض الصلح التى تقدم بها إلى زعماء الحركة الصليبية والتى قرر فيها أن يحتفظ " بمصر " مقابل التنازل عن القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبى بحيث أن ماعرضه الكامل من تنازلات كان تزيد كثيراً على مايمكن أن يعرضه حاكم أصابته هزيمة نكراء لا يمكن القيام بعدها لقواته كى تواصل القتال ! فقد عرض عليهم " تسليم القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبيل واللازقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا " ؟! .

فالمسألة إذن . لم تكن رغبة فى " السلام " أو عجزاً عن " الحرب " بقدر ما كانت " مساومة " تمكنه من تأمين عرشه فى مصر من ناحية ، والتفرغ لصراعاته السياسية والعسكرية مع حكام المنطقة العربية من ناحية أخرى مما جعله يبالغ فى التودد إلى الفرنجة رغبة فى تحقيق السلام معهم .

" ورسل الملك وأخوته مترددة إلى الفرنج فى الصلح " .

وقد تناول المؤرخون خصوصية مصر فى الفكر السياسى للملك الكامل الأيوبى بصورة لا تدع مجالاً للشك فى أن خيار السلام كان مفروضاً على هذا الحاكم إلى حد جعله يكشف عن كافة أوراقه السياسية أمام القوى المعادية فى الشرق الإسلامى والغرب المسيحى من منطلق حرصه المطلق على أمن وسلامة مصر إذ أن احتلال الصليبيين لحاضرة العالم الإسلامى يعنى عنده " بوار الإسلام بالكلية " على قول ابن واصل .

وهو ما يؤكده مؤرخ آخر بقوله : " فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليها شئ من الممالك بعدها " .

ولهذا فإن الملك الكامل أرسل " سبعين رسولاً " إلى مختلف حكام الأقطار الإسلامية " يستحثهم " على معاونته فى قتال " الفرنج " وإنقاذ المسلمين والدفاع عن أمن مصر .

" فوصلت رسلهم إلى الملك الأشرف وهو يتجهز للمسير إلى نجدة أخيه السلطان الملك الكامل ليدفع الفرنج عن الديار المصرية " .

وفى تصورنا أنه برغم الجهود الدفاعية والمناوشات الهجومية للملك الكامل ضد الصليبيين والتى ساعد عليها تأييد حكام بنى أيوب فى الشام - فإن فكرة " الصلح " كانت قد نضجت وأينعت فى رأس الكامل وحان قطافها على يد ملوك غرب أوربا ، وأن الاستعدادات العسكرية كانت نوعا من المداراة لخطط سياسية والمساعى الدبلوماسية أعدت سلفا فى ضوء المراسلات بين القيادة السياسية فى مصر والقيادة السياسية فى ألمانيا ، وكذلك فى ضوء الحسابات الشخصية لطرفى معادلة الصلح - الكامل وفردريك - إذ أن خيار الحرب لم يكن يقوى عليه أحد من حكام المسلمين وفى مقدمتهم الكامل الأيوبى الذى " رأى أن يرضى الفرنج

بمدينة القدس " بعد أن " اشتدت قوة الفرنج " وصارت دمياط محصنة من جانبهم بطريقة لا يمكن أخذها بالقوة .

وعلى الجانب الآخر فى الغرب الأوربى كان فردريك الثانى Ferderik II قد أخذ شارة الصليب كى يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له فى اعتلاء كرسى الحكم فى ألمانيا إلا أن هذا البابا وافته المنية فى السنة التالية (١٢١٦م) مخلفا وراءه المشكلة النهائية التى سبقت الإشارة إليها فى مجمع اللاتيران الرابع والذى استمع فيه إنوسنت الثالث إلى مزاعم المتنافسين على عرش الإمبراطورية الألمانية ثم أعلن حكمه النهائى لصالح فردريك الثانى .

وجاء من بعده البابا هونريوس الثالث (١٢١٦ـ ١٢٢٧م) ليتبنى هذا المشروع الصليبى الكبير .

ويبدو أن فردريك الثانى بدهائه السياسى ـ استطاع أن يراوغ فى تنفيذ نذره الصليبى غير مرة متذرعا بمشاغله الداخلية إلا أن زواجه من " بولاندا " ابنة حنا برين ـ ملك الصليبيين فى عكا ـ حمل الإمبراطور مسئولية الدفاع عن ميراثه الشرعى فضلا عن أن البابوية لم تأل جهدا فى مطاردة هذا الداهية حيثما كان كى يوفى النذر الذى أخذه على نفسه،بل إن البابا جريجورى التاسع Greogery IX قام بتوقيع أقصى عقوبة كنسية على فردريك (الحرمان البابوى) حتى يجبره على الخروج بحملة صليبية إلى " مصر " مضحياً بطموحاته السياسية فى القارة الأوربية وأملاكه فى ألمانيا وإيطاليا وصقلية وما يضاف إليها من أراض جديدة .

وفى غضون تلك الأحداث المترتبة على نتائج الحملة الصليبية الخامسة التى آلت إلى فشل الفرنجة فى احتلال مدينة دمياط وعودة القوات المصرية إلى الانتشار فى أرجائها فى اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١م ـ جاءت الرياح السياسية الأوربية بما لا يشتهى الكامل الأيوبى ، إذ علم من معاونيه أن ثمة حملة

صليبية جديدة فى طريقها إلى مصر تحت قيادة الإمبراطور فردريك الثانى الذى اشتهر بلقب " أعجوبة الدنيا " وتحلى بمظاهر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية حتى قيل فيه أنه كان يصلى ويتلو القرآن ويتظاهر بقربه من الإسلام والمسلمين . وفى الوقت نفسه كان يزدرى الأنبياء وأصحاب الرسالات السماوية ويصفهم بالأدعياء .

وتظالعنا المصادر بأن المراسلات الودية بين الكامل الأيوبى وفردريك الثانى وانتظام السفارات بين الطرفين منذ سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ظلت شبه مستمرة حتى جاء الإمبراطور إلى الشرق فى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م على رأس جيش صغير لا يزيد عن ستمائة فارس لكى يسترد بيت المقدس برغم أنه كان شديد الكراهية للبابوية التى أصدرت ضده قرار الحرمان حتى يفى بنذره الصليبى .

وثمة روايات عديدة عن اتفاقية الصلح بين الكامل وفردريك الثانى فى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م من بينها رواية ابن واصل التى تقول :

" تقرر بينهما أن يسلم (الكامل) إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً ولا يجدّد سوره وأن لا يكون للفرنج شئ من ظاهره البتة بل يكون جميع قراياه للمسلمين . وللمسلمين والٍ عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين وشعار المسلمين فيه ظاهر ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين واستثنى الفرنج قرايا معدودة هى طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس " .

ويبدو أن المؤرخ ابن واصل كان راضياً - إلى حد كبير - عن المنهج السياسي للملك الكامل وأسلوب معالجته لقضية القدس باعتباره صاحب السلطة الزمنية والدينية بل إنه يرى في تنازل الكامل عن القدس ورقة سياسية رابحة تكشف بجلاء أن مصر كانت هي الشغل الشاغل في الفكر السياسي لخلفاء صلاح الدين الأيوبي وأنها كانت الدافع الحقيقي لكل ممارسات الكامل مع الجانب الآخر (الصليبيون) .

بل إن المؤرخ لم يشأ أن يدفع عن الكامل مسئولية ثورة الرأي العام الشعبي ضده فوصف هذا الفعل السياسي غير المسبوق بأنه مجرد " هفوة " ! مبرراً ذلك بقوله : " كان الملك الكامل يعلم أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه .

بينما نقرأ في السلوك ما يكشف عن رؤية مؤرخنا المقريزي لحقيقة هذا الصلح وإلى اعتباره نوعا من " البلاء " حل بالمسلمين و " نفرت منه قلوب الناس" .

يقول شيخ المؤرخين (المقريزي) :

" وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان فعز عليه ذلك ،.. ، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار " .

وهذه الروايات وغيرها تضع الباحث أمام نوع من المفارقات فى كتابات المؤرخين الذين رصدوا هذا الحدث بنوع من الريبة والحذر الشديدين مما يجعله يتساءل : لماذا لم نقرأ عن هذه المفارقات عند تعقيب هؤلاء المؤرخين على " الصلح " الذى أبرمه صلاح الدين الأيوبى مع ريتشارد الأول ؟

وعلى كل فإن تلك الحجج والأسانيد التى قدمها المؤرخون فى حولياتهم لتبرير سياسة التخاذل والمهادنة التى سار عليها الملك الكامل لا يمكن للباحث أن يعول عليها فى تبرئة هذا الحاكم أمام محكمة التاريخ إذ أنه من غير المعقول أن يسلك الكامل طواعية كل ما فتحه المسلمون أيام جده صلاح الدين بعد معارك استرداد طويلة ومريرة استمرت عشرات السنين وسقط فيها آلاف الشهداء فضلا عن الاستنزاف المستمر للموارد والثروات لخدمة المجهود الحربى ، ثم نذهب مع القائلين بأنه كان سابقا لعصره عندما دعا بدعوة التسامح والتسامى بعيدا عن التعصب المقيت الذى كان سمة الحروب الصليبية .

ولسنا كذلك مع الرأى القائل بأن التفريط فى القدس والساحل كان ضمن " خطة استراتيجية بعيدة المدى " للحفاظ على " القلب " مصر " سليما معافى .

فمن المعروف أن "مصر" كانت هدفا محوريا فى الأيدلوجية الصليبية منذ قدوم الحملة الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وحتى تحرير آخر معاقل الصليبيين فى عكا فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى،وأن مصر كانت تعيش أسوأ مراحل ضعفها السياسى ،والاقتصادى ،والعسكرى فى نهاية حكم الفاطميين مما يثير شهية الصليبيين لاحتلالها وافتراسها وبرغم الكثافة العالية للأخطار والمؤامرات والفتن التى احاطت بصلاح الدين الأيوبى داخلياً وخارجياً فإن خصوصية مصر وأهميتها فى فكره السياسى لم تشغله لحظة عن التفكير فى تحرير القدس وغيرها من الإمارات الصليبية الساحلية وهى المعادلة الصعبة

التى لايقوى عليها إلا قائد عسكرى من طراز صلاح الدين الذى "كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً " على قول أحد المعاصرين .

لقد كان المشهد السياسى والعسكرى قبيل إبرام صلاح الدين الأيوبى الصلح مع ريتشارد مختلفاً تماماً فى أنظار المؤرخين الذين عاصروا الصلح بين الكامل الأيوبى وفردريك الثانى . كيف ؟

كانت ثمة وحدة سياسية بين مصر والشام والعراق تحت قيادة صلاح الدين فضلاً عن امتداد نفوذه إلى مناطق أخرى شملت اليمن وبلاد الحجاز واليمن .

ولم تكن مصر فى العقلية السياسية لصلاح الدين مجرد مركزاً للجاه والسلطان أو مستودعاً للإمداد والتموين ، وإنما كانت صاحبة الدور الريادى فى إدارة عجلة الحرب والجهاد ضد الصليبيين ناهيك عن دورها الفكرى والدينى والثقافى فى تعبئة وشحن الروح المعنوية للجماهير العربية الإسلامية فى مواجهة قوى البغى وجحافل الشر الوافدة من الغرب الأوربى /الكاثوليكى لإجهاض حركة المقاومة الإسلامية عن طريق ضم مصر إلى أملاك الوجود الصليبى أو تحييدها فى عملية الصراع لما تمثله من ثقل سياسى واقتصادى وعسكرى فى المنطقة العربية بأسرها .

" .. ولما علم الفرنج ماتم للسلطان (صلاح الدين) من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم .وكان الرأى العام الشعبى فى مصر متعاطفاً إلى حد كبير مع القيادة السياسية الملهمة التى تحقق أهداف المسلمين القومية بعد فترة طويلة من فقدان الثقة فى الرموز السياسية السلبية التى بلغت درجة عالية من الهشاشة فى مجاهدة الأعداء وكأنهم يريدون بقاء الفرنج "ليثبت عليهم ماهم فيه" على قول أحد المعاصرين .

أضف إلى هذا كله أن صلاح الدين الأيوبى أقام صلحه مع ريتشارد الأول على أساس إنجازه العسكرى المذهل فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م (معركة حطين) وانتصاراته السياسية المبهرة على قوات الحملة الصليبية الثالثة التى شاركت فيها جيوش الغرب الأوربى - بينما كان الكامل الذى وصفه أحد معاصريه بأنه "أسوس" حكام عصره لا يمتلك سوى خيار واحد هو مايمليه عليه الأعداء من شروط الصلح التى حققت بجرة قلم مالم تحققه الحملات الصليبية السابقة واللاحقة بجرارجيوشها.

ومن المفيد هنا تلاوة ماكتبه المقريزى تعقيباً على اتفاقيتى الصلح فى زمن كل من صلاح الدين الايوبى وابن أخيه الكامل الأيوبى .

فهو يقول عن صلح الرملة :

"وأهلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان (صلاح الدين) بالقدس مجتهد فى عمارته . وفى جمادى الآخرة ملك الفرنج قلعة الداروم وخرج العسكر المصرى يريدون السلطان فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم . وقد طمعوا فقصدوا المسير إلى القدس ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة وبعثوا رسلهم فى طلب الصلح فبرز السلطان من القدس فى عاشر رجب وسار إلى يافا فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن آخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً وتسلم السلطان القلعة وأخرج من كان فيها من الفرنج ،...، وعزم على لقاء الفرنج فاختلف عليه أصحابه وأسمعه بعضهم كلاماً جافياً فانثنى عن ذلك وقدم عسكر مصر فخرج إلى الرملة وقع الصلح بين السلطان والفرنج " .

بينما يقول عن صلح يافا :

"وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج (فردريك الثانى) وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته . وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر (من الصلح) وبعث السلطان (الكامل) فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج

فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الآذان .فعز عليه ذلك . فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار .

وبعث الإمبراطور (فردريك الثانى) بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها فسلمها الكامل له . فبعث يستأذن فى دخول القدس فأجابه الكامل إلى ماطلبه .

بل أن المقريزى يشير إلى مفارقة عجيبة سبقت إبرام هذا الصلح وهى أن الكامل خرج على رأس حين لمحاربة ابن أخيه الملك المعظم عيسى بسبب مراسلة الأخير لحاكم مسلم (جلال الدين خوارزم شاه)"وقطع الخطبة للملك الكامل" وفى نفس الوقت احتفى الملك الكامل بمبعوث الملك فردريك الثانى "وأكرمه إكراماً زائداً"..، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن ،والعراق والشام ، ومصر والعجم ،...، وفيها سرج من ذهب وفيها جوهرة بعشرة آلاف دينار مصرية " !

فهل يجوز للباحث أن يأخذ بالرأى القائل أن " فطنة الكامن " سبقته إلى ابتهال تلك الفرصة النادرة لكى يحتفظ بحكم مصر ومصالحه الاقتصادية مع القوى الصليبية فى ساحل بلاد الشام والمدن التجارية الايطالية .

وماذا لو علمنا أن الشعوب الإسلامية (القوى الإنتاجية) كانت تعارض هذا الصلح لما فيه من "الوهن" و"البلاء".والأدهى من هذا أن الكنيسة الكاثوليكية كانت غير راضية عن هذه الاتفاقية بحكم تعصبها المقيت ضد المسلمين الوثنيين .

وعلى مدى سنتين من أحداث الحملة الصليبية الثالثة كانت الحرب فيها سجالا بين الخصمين العنيدين - صلاح الدين الأيوبى وريتشارد الأول - لم يتوان صلاح الدين لحظة واحدة عن حماية بيت المقدس برغم ما أصاب جنوده من شدة الجهد والتعب فى مواجهة أعتى جيوش الغرب الأوربى فى العصور الوسطى .

وفى نفس الوقت أدرك ريتشارد حجم الخسائر البشرية والمالية التى تكبدها فى تلك الحرب التى لم تحقق له وللكنيسة شيئا يذكر من المكاسب المنشودة مما دفعه إلى طلب الصلح حفاظا على ماء وجهه أمام الدين ، وخوفا على سلامة نفوذه السياسى فى إنجلترا . ورغم أن صلاح الدين كان مستعدا لمواصلة الحرب ضد الصليبيين إلى آخر يوم فى عمره فإنه آثر قبول الصلح إشفاقا منه على جنوده ونزولا على رغبة قواده الذين سئموا من طول زمن المعارك مع الأعداء .

"..، وكان يوم الصلح يوما مشهودا . وإذا كنا نتفق مع مقولة أحد الباحثين - إلى حد ما - فى " أن الكامل عندما أقدم على تسليم القدس . لم يكن فى ذلك أى تفريط فى الحقوق أو القضية برمتها بقدر ما كان خطة تكتيكية ضمن سياسة استراتيجية تهدف إلى إنقاذ مصر من الوقوع فى قبضة الصليبيين وبالتالى الحفاظ على الشام " فإننا نختلف - إلى حد كبير - معه فى قوله أن الملك الكامل : " لم يكن مبتدعا فيما أقدم عليه بل سبقه إلى ذلك عمه السلطان الناصر صلاح الدين " .

فهل من المعقول قياس اتفاقية يافا فى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م - بمقدماتها ونتائجها المهينة - على اتفاقية صلح الرملة فى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م ؟ لقد كان صلاح الدين يمتلك الخيارين (الحرب والسلام) واختار الخيار الثانى من منطلق القوة مصداقا لقوله تعالى : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها " ، وليس من منطلق الضعف بين الذين تفرقوا وتنازعوا من خلفاءه .

وربـ سائل عن الدوافع الحقيقية لتفريط الملك الكامل فى القدس والمسجد الأقصى متحدياً بذلك المشاعر الروحية لملايين المسلمين فى أنحاء العالم . ومستنداً فى ذلك إلى فتوى لأحد الفقهاء الشافعية بشأن الشروط الشرعية للهدنة وجوانبها التوثيقية الأخرى .

ولعلى استند هنا إلى ما كتبه ابن واصل فى " مفرج الكروب " ونقله عنه المقريزى فى " السلوك " من رد الفعل الشعبى الغاضب على هذا الصلح المهين لدرجة أن " ارتفع بكاء المسلمين فى المساجد ، وعلا صراخهم ، وأقاموا المآتم لتقبل العزاء فى هذا المصاب الجلل والخطب العظيم " .

وتقول الرواية التى ورد ذكرها أيضاً فى المقالة التى كتبها القاضى ابن أبى الدم على هذا النحو :

" ومتى مهد المولى السلطان الكامل خلد الله أيامه بلاد الشرق ، واتفقت كلمة الملوك على سلطنته والطاعة له استعاد البيت المقدس من يد من هو فى حوزة من الفرنج فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة .

وعلى الجانب الآخر تأتى رواية ابن واصل التى تقول :

" بلغنى أن الإمبراطور (فردريك) قال: لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج ، لما كلفت السلطان (الكامل) شيئاً من ذلك ، ومالى غرض فى القدس ولا غيره " !

وإذا سلمنا - سلفاً - بأحاديث المؤرخين المسهبة حول السمات الثقافية والأخلاقية والعقلية المشتركة بين طرفا اتفاقية الصلح (الكامل الأيوبى وفردريك الثانى) - تلك الأحاديث التى رفعتهما إلى مصاف " العباقرة " الذين لم يفر فريهما أحد فى نبوغهما السياسى ، فهل تلك الروايات التى ساقها المؤرخون فى إطار ذكرهم الاتفاقية يمكن قبولها كأساس علمى لفهم الدوافع الحقيقية لتلك الاتفاقية .

ففى رأينا أن " خصوصية " مصر فى الفكر السياسى للملك الكامل الأيوبى هى التى دفعته إلى الاستنجاد بالإمبراطور فردريك الثانى فى مواجهة أطماع أخيه المعظم عيسى وحلفائه من الخوارزمية وتعهد له مقابل ذلك أن يتنازل له عن بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل الأمر الذى انتهى باتفاقية يافا فى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م .

ويؤكد هذه الخصوصية ما حدث بعد هذه الاتفاقية بخمسة عشر عاماً (٦٤١هـ/١٢٤٣م) بين الملك الصالح إسماعيل وأخيه الملك الصالح أيوب ، عندما اشتد الصراع بينهما مما دفع الأول إلى طلب النجدة من الصليبيين مقابل تسليم القدس لهم لضمان تأييدهم له ضد الآخر .

فالقدس التى طهرها صلاح الدين الأيوبى من دنس القوات الصليبية ـ بعد أن عاثوا فيها الفساد ـ بحيث عد ذلك من أعظم "مناقب" هذا القائد العظيم ـ ظلت فى زمن خلفائه ورقة سياسية يتلاعبون بها فى مواجهة الأخطار التى تهدد عروشهم الوثيرة ومكاسبهم الشخصية الوفيرة وأملاكهم الواسعة فى مصر والشام ولم لا ، والملك الصالح أيوب يقول لابنه تورانشاه وهو على فراش المرض :

"يا ولدى. إن الديار المصرية هى كرسى المملكة وبها تستطيل على جميع الملوك".

ولم يكن الملك الكامل الذى " عمرت فى أيامه ديار مصر عمارة كثيرة " بغافل عن حقائق الصراع الإسلامى /الصليبى وما يدور فى الأوساط السياسية والعسكرية والدينية فى الغرب الأوربى وهو الذى وصفه ابن واصل وغيره من المؤرخين بالهيبة ، والحلم ، وسداد الرأى ، وحسن التدبير .

كان الملك الكامل يدرك بفكره السياسى أن "مصر" هى درة العقد فى الأطماع التوسعية الصليبية على اعتبار أنها الهدف الرنيسى لكافة الشرائح الاجتماعية (الكنسية والعسكرية والمدنية) التى تتوق شوقا إلى ثروات الشرق

فى إطار الخطاب الدينى المعلن من قبل البابوات لتعبئة هذه القوى الاجتماعية فى شن الحملات العسكرية ضد المسلمين .

فالحملة الصليبية الرابعة لم تكن سوى مقدمة استراتيجية لغزو مصر للسيطرة على حركة التجارة العالمية بين الشرق الأسيوى والغرب الأوربى يدل على هذا أن تجار المدن الإيطالية (جنوة - بيزا - البندقية) والبورجوازية الأوربية كانوا مهيئين جميعا لاحتلال أى ميناء تجارى فى حوض البحر المتوسط بغض النظر عن الجنسية أو الديانة الخاصة بالسكان القاطنين فى تلك الموانئ .

وفى الوقت الذى كان فيه البابوات والدعاة الكنسيون يرفعون شعار الصليب هدفا نبيلا لتلك الحملات العسكرية الغاشمة ويتوعدون ملوك أوربا بالويل والثبور لمن يتقاعس منهم عن أداء واجبه المقدس فى فلسطين ، كانت القوى السياسية والتجارية مشغولة بوضع استراتيجيات اقتصادية سرية لتوطيد علاقتها الاقتصادية والسياسية مع حقام بنى أيوب ضاربين بقرارات الحرمان البابوى عرض الحائط .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية يعنيها البعد العقيدى وإرضاء الرب من خلال دعوتها شبه المستمرة لتلك الحملات فبماذا يمكن تفسير الرفض البابوى لعرض الملك الكامل الأيوبى بالانسحاب من دمياط (الدنيا) مقابل القدس (الآخرة) .

وهل كانت هذه القوى مجتمعة تستطيع صبراً على التضحية بمصالحها الاقتصادية فى مصر من أجل مصالحها الروحية فى فلسطين ؟!

بيد أن الملك الكامل الأيوبى لم يكن فى وضع يسمح له بالدخول فى مواجهة عسكرية مع الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الذى كان بدوره كارهاً للحرب ضد المسلمين باسم الكنيسة الكاثوليكية خاصة أنه نشأ وترعرع فى ظل مبادئ الدين الإسلامى الحنيف فى جزيرة صقلية ، وكان واسع العلم والمعرفة بالثقافة العربية ، وفى هذا يقول نورمان كانتور موضحاً علاقته بالكنيسة :

" كان فردريك (١٢١٥-١٢٥٠م) رجلاً غريباً " عجيبة الدنيا" الذى يخرج عن النظام الأخلاقى فى زمانه . ولكنه كان مصاباً بجنون العظمة يعتبر نفسه فوق المستويات الأخلاقية المسيحية ....، وقد اعتبرته البابوية عدوها اللدود " .

ويضيف قائلاً:"إذا كان فردريك قد أخذ شارة الصليب ليضمن تأييد إنوسنت الثالث . ولكنه كان عازفاً عن الوفاء بقسمه الصليبى لأنه كان يتوق إلى شن حملته على شمال إيطاليا . وأخيراً فى سنة ١٢٢٨م ذهب فعلاً إلى الأراضى المقدسة وهو مازال تحت وطأة الحرمان البابوى بسبب عدم وفائه بالقسم الصليبى من قبل . ولم يفعل شيئاً سوى التظاهر بقتال المسلمين ، ثم هرول عائداً إلى جنوب إيطاليا حيث قام جيش بابوى بغزو أراضيه على الرغم من أن نجاح الغزو كان محدوداً".

فهل ثمة شك فى أن الملك الكامل كان بدهائه السياسى وتخاذله العسكرى كان يدرك حقيقة الظروف الداخلية في الغرب الأوربى بين فردريك الثانى والبابوية والتى استغلها الكامل بدوره وجعلت فردريك الثانى يتظاهر بميوله للدين الإسلامى وهو ما تصوره بعض المؤرخين فى إطار عقيدى لا دبلوماسى والتى استغلها فى تحقيق مصالحه الشخصية المتركزة أساساً فى حفاظه على كرسى الحكم فى مصر.

وربما لعبت الظروف الداخلية المعاكسة دوراً فى الضغط المعنوى على الملك الكامل أدى إلى إلحاحه المتكرر فى عرض القدس والفتوح الصلاحية على الصليبيين أثناء الحملة الخامسة ، ثم عرضها على الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الذى قبل العرض شاكراً فضل الكامل فى حفظ هيبته وحرمته بين ملوك البحر .

وتنحصر هذه الظروف في المؤامرات التى دبرها الأكراد العاملين فى الجيش المصرى بقيادة "ابن المشطوب " ، وكذلك قبائل البدو والعربان الذين حاولوا الصيد فى المياه التى عكرها الصليبيون فى نيل دمياط ، فأغاروا على النواحى المتاخمة لدمياط ، وقطعوا السبل على الأهالى ، وعاثوا فى القرى فساداً"فكانوا أشد

على المسلمين من الفرنج " على قول المعاصرين وقد دفعت تلك المؤامرات والفتن من جانب الأكراد والأعراب الملك الكامل إلى التقهقر أمام جحافل الصليبيين والانسحاب إلى أشموم (أشمون) طناح ـ خوفاً من الوقوع فى الأسر على أيدى الغزاة ، أو الموت غيلة على أيدى بعض أمرائه . وفضلاً عن هذا كله فإن أخوة الكامل فى بلاد الشام تباطئوا فى تلبية نداء الجهاد ضد الصليبيين برغم كثرة مراسلاته إليهم وبخاصة المعظم عيسى والأشرف موسى اللذين تحالفا من الخوارزمية (المغول) للوقوف معهما ضد الملك الكامل بدلاً من الوقوف معاً فى خندق واحد ضد الصليبيين الذين صاروا قاب قوسين أو أدنى من احتلال مصر هدفهم الرئيسى فى الشرق العربى / الإسلامى .

وفى أعقاب وفاة الملك الكامل الأيوبى (٦٣٥هـ/١٢١٨م) انقلب الجنود الخوارزمية على الصالح نجم الدين أيوب وكادوا أن يقتلوه مما دفعه إلى الهروب من محل إقامته فى أعالى العراق إلى سنجار " خوفاً على نفسه " .

وما لبث الصالح نجم الدين أيوب أن نجح فى استعادة ولاء الخوارزمية وتمكن من هزيمة أمير الموصل لكى يوجه ناظريه شطر " مصر " .

وذلك بعد سلسلة من الأحداث والصراعات الدامية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبى الذين ارتضوا لأنفسهم الذل والهوان فى مواجهة القوى الصليبية فى سبيل أن يحتفظوا بعروشهم الصغيرة والمتناثرة فى أنحاء العالم العربى /الإسلامى دون أن يفكروا فى توحيد صفوفهم وجمع شملهم بل على العكس فإنهم تفرقوا واختلفوا ودخلوا مع بعضهم البعض فى حروب إقليمية ومؤامرات وفتن داخلية .

ولعل الرواية التى ذكرها ابن واصل عن الحالة السياسية لبنى أيوب تكفى للتدليل على ما أشرنا إليها آنفاً حيث يقول :

ودخلت سنة ست وثلاثين زستمائة (١٢٣٨م) والسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل صاحب الديار المصرية ، وهو مقيم بها والملك الناصر داود بن الملك المعظم بالكرك وقد قل جيشه وضعفت قوته ، والملك الجواد بن مودود بن الملك العادل ملك دمشق وعنده الملك المجاهد صاحب حمص والملك المظفر صاحب حماة محصور بحماة ، وعسكر حلب مع الملك الكامل بسنجار وقد قوى بكسره بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وانضمام الخوارزمية ومقدمهم بركة خان إليه ، وكان قد زوج الملك الصالح أخته لأمه من بركة خان ، وأبوها الفارس قليب مملوك السلطان الملك الكامل وقد سلم إليها حران والرها ، وبيد الملك الصالح أمن وبلادها وما كان بيد الملك الكامل والملك الأشرف من بلاد الشرق .

وفى خضم تلك الفوضى السياسية تحالف الملك الصالح نجم الدين أيوب مع الملك الناصر داود ، واتفقا على خلع الملك العادل الثانى على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر .

" وجلس الملك الصالح نجم الدين أيوب على سرير الملك واعتقل أخاه العادل ببعض دوره واستخلف الأمراء . وزينت القاهرة وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة " .

ومع ولاية الصالح أيوب حكم مصر كانت الظروف الاقتصادية والسياسية فى غاية السوء وهو ما تشير إليه كتابات المؤرخين من أمثال ابن واصل،والمقريزى وابن تغرى بردى وغيرهم معبرين عن حالة الإخفاق الذريع فى السنوات الأخيرة من حكم خلفاء صلاح الدين .

" وفى ذى الحجة (٦٣٧هـ) أحضر الملك الصالح إليه الملك العادل وسأله عن أشياء ثم كشف بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم وقيل له عما أتلفه أخوه " السفيه " (الملك العادل الثانى) وبرغم أن الصالح

أيوب قد تلقى تأييداً من الخليفة العباسى أضفى على حكمه نوعاً من الشرعية فإن قوة معارضيه فى الداخل (الأمراء وقبائل العربان) والخارج (أمراء الشام) وقفت حائلاً دون تمكينه من دعم قوته العسكرية فى مواجهة الصليبيين ومما زاد الطين بلة أن الملك الصالح إسماعيل ـ عم الصالح أيوب ـ مارس نفس السياسة التآمرية التخاذلية لخلفاء صلاح الدين طمعاً فى حكم مصر حتى أنه "أذن للفرنج فى دخول دمشق " واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ومحاربة صاحب مصر وأعطاهم قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة (بالشقيف) وسائر بلاد الساحل ، وعزم على قصد مصر ".

ومن ناحية أخرى كان الصليبيون يتحينون الفرصة تلو الفرصة لإرسال حملات صليبية إلى "مصر" معتمدين فى ذلك على انقضاء مدة الهدنة بين الملك الكامل الأيوبى والإمبراطور فردريك الثانى (١٢٢٩ـ ١٢٣٩م) وفى نفس الوقت حالة التشرذم السياسى فى الساحة العربية .

ومن المدهش ـ حقاً ـ أن "القدس" التى تم استردادها فى ٩ جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م بوساطة الجنود الخوارزمية تحولت ـ على العادة ـ إلى ورقة سياسية على مائدة المفاوضات بين المسلمين والصليبيين بحيث يتم التنازل عنها مرة أخرى للصليبيين مقابل أن تظل مصر بأيدى ملوك بنى أيوب الذين تنافسوا جميعاً فى الفوز بها حتى إن المؤرخ "ابن واصل " الذى عاصر تحرير القدس على يد الناصر داود لم يشغله هذا الحدث العظيم بقدر ما شغله الحديث عن حكمة الكامل ورجاحة عقله وسعة ثقافته هو وشريكه فى اتفاقية يافا (فردريك الثانى) . الأمر الذى يجعلنا نتعامل بنوع من الحيطة والحذر مع روايته عن تلك الحقبة التى عاصرها .

وقد تحالف بعض حكام الشام ومن بينهم الصالح إسماعيل فى دمشق والناصر داود فى الكرك ، والمنصور إبراهيم فى حمص ضد الصالح نجد الدين أيوب مقدمين تنازلات شائنة شملت منطقة الأقصى وقبة الصخرة . وذلك فى خضم الحملات الصليبية التى تتابعت على الشرق فى الفترة من سنة ١٢٣٩م إلى سنة ١٢٤٩م (حملة تيبالد الشمبانى - حملة ريتشارد كورنوول - حملة لويس التاسع) - وهى الحملات التى باءت فى مجموعها بالفشل بفضل بسالة قسم كبير من الجنود الشوام والمصريين الذين رفضوا التحالفات المهينة لملوكهم وزعمائهم وكذلك المقاومة الشعبية المبهرة للمصريين ضد الحملة الصليبية الأخيرة على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وهكذا صارت مصر فريسة سهلة للحملات الصليبية المتتالية فى زمن خلفاء صلاح الدين والتى كان آخرها الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع Louis IX تلك الحملة التى نجحت فى احتلال دمياط مرة أخرى فى صفر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م .

وفى هذه الأثناء توفى سلطان مصر الملك الصالح أيوب فى منتصف شعبان (٦٤٧هـ) دون أن تجد مصر جيشاً نظامياً قوياً يدافع عنها إذ تحولت المعارك بين المصريين والصليبيين فى دمياط والمنصورة إلى نوع من حرب العصابات حيث كثرت أعداد الأسرى من القوات المعادية بفضل الأعمال الفدائية للمجاهدين المصريين والعرب من الشوام والمغاربة الذين توحدوا على قلب رجل واحد فى أروع صورة من صور المقاومة الباسلة أشار إليها أحد المؤرخين الأجانب المعاصرين (جوانفيل) بقوله :

" كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ليجهزوا على رجالنا وهم يغطون فى سباتهم " .

وبوفاة الملك الصالح أيوب خلت الساحة العربية/الإسلامية من وجود شخصية حاكمة قيادية يمكن لها إدارة عملية الصراع بين القوى الصليبية والقوى الإسلامية فى أحرج الفترات التاريخية فى مصر أواخر العصور الوسطى والتى كانت فى حاجة إلى ظهور قوة سياسية تعيد لمصر هيبتها وريادتها فى سائر بلاد العالم .

ويرشدنا "النويرى" إلى خصوصية مصر فى الفكر السياسى للملك الصالح الأيوبى فى سياق مقولة الصالح لابنه وهو يعظه :

" وهذا العدو المخذول (الصليبيون) أن عجزت عنه وخرجوا من دمياط وقصدوك ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل أعطهم ولا تتوقف على أن لا يكون لهم فى الديار المصرية قعر قصبة " .

أليست تلك الوصية التى تركها الأب لابنه تأكيداً صريحاً لخصوصية مصر فى الفكر السياسى لخلفاء صلاح الدين الأيوبى ، واعترافاً واضحاً بعجز هؤلاء الخلفاء عن مواجهة التحديات العسكرية التى واجهها سلفهم الناصر صلاح الدين دون ضعف أو تخاذل أو هوادة ؟ .

ومن الخطأ أن نركن إلى ماسطرته أقلام بعض المؤرخين المعاصرين المفتونين ببعض السجايا الشخصية لخلفاء صلاح الدين التى كتبت بقصد أن تكون تاريخاً دون النظر إلى السجايا الأخرى التى تؤثر إيجاباً فى مصائر الشعوب وتصون الحقوق الطبيعية للمسلمين وغير المسلمين فى الحياة الحرة الكريمة وتحافظ على ثوابت القيم التى تتوارثها الأمم جيلاً بعد جيل .

ولعلى أتساءل ؛ هل كان صلاح الدين الأيوبى أدنى فى سجاياه الحميدة سياسياً وثقافياً وعقيدياً ـ من الذين جاءوا من بعده ؟ ألم يكن بحق " صلاح الدين والدنيا ،...." وهل كان دونهم فى دعوة السلام والتسامح التى شهد له بها الأعداء

قبل الأصدقاء ؟ بل إن صلاح الدين الأيوبى كرس سجاياه وصفاته النبيلة فى تأسيس دولة إسلامية كبرى عاصمتها مصر لعبت دوراً مصيرياً فى خدمة حركة الجهاد ضد الصليبيين بالرغم من أن التحديات التى واجهت صلاح الدين كانت تفوق فى قوتها وشدتها تلك التى واجهت خلفاؤه من بعده .

والواقع أن أسلوب المهادنة والتخاذل فى حقوق الرعية كان يمثل خطأ ثابتاً فى الفكر السياسى لخلفاء صلاح الدين الأيوبى ، وكانت عروضهم على الصليبيين غاية فى الكرم المسّف إذ بسطوا أيديهم كل البسط لكى يضمنوا استقرار وجودهم السياسى وبخاصة الذين يحكمون مصر من أمثال العادل ، والكامل ، والصالح أيوب الذين تنازلوا عن كثير من التراث السياسى والمجد العسكرى لصلاح الدين الأيوبى .

بل إن هذه السياسة التخاذلية أثرت سلباً على النهضة الفكرية والثقافية التى شهدتها مدينة القدس وبلاد الشام فى أعقاب معركة حطين وتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبى وهو ما شهد به عماد الدين الأصفهانى(ت:٥٩٧هـ) لتلك المدينة الخالدة من أنها كانت منارة للثقافة وملتقى لأهل العلم والمعرفة من كل جنس ...، وتذاكر (فيها) العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث الرواة ،....".

وبعد ، فإن الباحث فى تاريخ عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبى يستطيع أن يدرك حجم الفراغ السياسى والعقيدى الذى تولد فى الشرق العربى/الإسلامى بعد رحيل صلاح الدين فى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وخلو الساحة من شخصية قيادية يمكنها توحيد العالم الإسلامى تحت راية الجهاد ضد الصليبيين .

ولقد عانت المنطقة العربية حالة من التشرذم السياسى والضعف العسكرى والانهيار المعنوى فى ظل الخلافات الشخصية بين خلفاء صلاح الدين طمعاً فى الجاه والسلطان ومزيد من المكاسب الدنيوية الزائلة . بمعنى أن هؤلاء الخلفاء تخلوا ـ طواعية ـ عن دورهم التاريخى الذى رسمه لهم مؤسس دولتهم الناصر

صلاح الدين الأيوبى وتفرغوا للقتال الرخيص ضد بعضهم البعض لتحقيق أهداف سياسية خاصة كانت " مصر " فى مقدمتها بحكم ريادتها التاريخية للعالم الإسلامى من ناحية ، وكثرة موارها الطبيعية والبشرية من ناحية أخرى .

ومن ثم فإن التحدى الذى جاءت الدولة الأيوبية استجابة له والمتمثل فى العدوان الصليبى شبه الدائم على العالم العربى على مدى قرنين من الزمان ـ فرض نفسه على المفاهيم السياسية لخلفاء صلاح الدين وأقنعتهم ـ مرغمين ـ بأن سياسة المهادنة والتفريط فى حقوق العرب والمسلمين هى الوسيلة المناسبة للتعايش السلمى مع الأعداء فى ظل وجودهم الاستيطانى فى المنطقة حتى وإن كانت تلك الوسيلة هى التفريط فى الأماكن المقدسة والتنازل عن القدس "ثالث الحرمين" .

ومن الطبيعى فى ضوء الفكر السياسى لهؤلاء الحكم ـ أن يتم التنازل عن جزء كبير من التراث التاريخى والإنجازات السياسية والعسكرية التى حققها صلاح الدين فى حروبه الباسلة مع الصليبيين وإن كانت هذه التنازلات قد تفاوتت نسبها من حاكم لآخر ، فالملك الكامل كان أكثرهم كرماً وسخاءً فى هذا الشأن بعد أن أورثه أبوه العادل فكرة أن " مصر " خير وأبقى فى المنظور الاقتصادى / السياسى من "القدس" وسائر بلاد الشام وأن الحرب مع الأهل والأقارب والأصدقاء خير من الحرب مع الأعداء الصليبيين ، ولم لا ؟ ألم يكن لسان حال الكامل فى كل ممارساته مع ملوك الغرب الأوربى الكاثوليكى ـ يقول : رب أخ لم تلده أمى ومن بينهم الإمبراطور الألمانى " فردريك الثانى " !

ومن أجل الاحتفاظ بحكم مصر قدّم الملك العادل للصليبيين عروضاً للصلح والمهادنة ومن بعده الكامل التى أسهبت المصادر المعاصرة فى الحديث عن دهائه السياسى ونجاحه فى إبعاد شبح الحرب عن مصر إلى أجل غير مسمى ! كما أن الملك الصالح برغم دوره الدفاعى عن مصر ضد الصليبيين ـ فإنه عرض

تنازلات كبيرة على الأعداء وعقد معهم معاهدات صلح من أجل نفس الغرض وهو تأمين كرسى الحكم فى مصر .

ولم يكن حكام بنى أيوب فى بلاد الشام أفضل من ذوى القربى فى مصر بل تكاملوا معهم فى تقديم التنازلات للصليبيين مقابل التحالف معهم فى غزو مصر والاستمتاع بمواردها وخبراتها الوفيرة . وإن كان ثمن ذلك القدس وسائر بلاد الساحل . وهو ما استنكره المسلمون والعرب فى أنحاء العالم الإسلامى .

وليس من الصعب على الباحث أن يدرك فى ضوء المصادر المعاصرة أن المبررات التى قدمها المؤرخون لأفعال هؤلاء الحكام غير كافية لإخفاء حقيقة أن "مصر" كانت الباعث القوى لكل الصراعات السياسية والمواجهات العسكرية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبى من ناحية والتنازلات السياسية المقدمة منهم للصليبيين من ناحية أخرى برغم أن الأحداث التاريخية التى امتلأت بها بطون المصادر حول الحملات الصليبية والمراسلات الكنسية توحى فى ظاهرها بأن "القدس" هى الباعث ،وهى الهدف ، والمبتغى .

بمعنى أن الأيوبيين - خلفاء صلاح الدين - تخلوا عن دورهم التاريخى فى الجهاد ضد الصليبيين وتحرير المقدسات العربية/الإسلامية ، وتوحيد العالم الإسلامى تحت راية سياسية مشتركة ، لكى يتفرغوا للتنازع والتقاتل فيما بينهم من أجل الانفراد بحكم مصر .

بل إن آخر الحملات الصليبية التى جاءت إلى الشرق فى عصر خلفاء صلاح الدين بدعوى تحرير القدس تحت قيادة الملك الفرنسى لويس التاسع كانت لاتعلم بأن ثمة قوة عسكرية جديدة تقف على أهبة الاستعداد للقضاء على البقية الباقية من أحلام زعماء الغرب الأوروبى فى بلاد الشرق تحت قيادة مصر أم الدنيا ومهد حضارات العالم .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً :المصادر العربية :

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن ، ت ٦٣٠ هـ)
- الكامل فى التاريخ جـ ٩ - جـ ١٢ (القاهرة ،١٩٦٦م)

ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر عبد الله ، ت ؟)
- كنز الدرر وجامع الغرر " الجزء السابع " المعروف بـ الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب
تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ،١٩٧٢م)

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين ، ت ٨٧٤هـ)
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق القسم الأدبى ، دار الكتب الأجزاء ٥، ٦، ٧
(القاهرة ،د.ت)

ابن جبير (محمد بن أحمد ، ت ٦١٤هـ)
- كتاب الرحلة (بيروت ،١٩٧٩م)

ابن شداد (القاضى بهاء الد ين ، ت ٦٣٢هـ)
- سيرة صلاح الدين المعروف بـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية تحقيق سعد كريم الفقى
(الإسكندرية ، دار ابن خلدون ، د.ت)

ابن العديم (أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد ، ت ٦٦٠هـ)
- زبدة حلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان " جزءان " (دمشق ، ١٩٦٨م)

ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن على ، ت ؟)
- التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو (دمشق ، ١٩٨٢م)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ)
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ١- جـ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال
(القاهرة ،د.ت)
جـ٤- جـ ٥ ، تحقيق حسنين محمد ربيع (القاهرة ،٧٢-١٩٧٧م)

ابن الوردى (زين الدين عمر ، ت ٧٤٩هـ)
- تاريخ ابن الوردى " جزءان فى مجلدين "
(بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٦م)

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد ، ت ٦٦٥هـ)
- كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين " جزءان فى مجلد "
(القاهرة ،١٢٨٧هـ) ، (بيروت ،د.ت)

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت٧٣٢هـ)
- المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ (القاهرة ،١٣٢٥هـ)

عماد الدين الأصفهانى (محمد بن صفى الدين ، ت ٥٩٧هـ)
- الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح
(القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ،١٩٦٥م)

القلقشندى (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١هـ)
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة ،د.ت)

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " جزءان فى مجلدين "
(القاهرة ، طبعة بولاق ،١٢٧٠هـ)
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ - جـ٢ ، تحقيق د.محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ،٣٤- ١٩٥٨م)

النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٧٣٣هـ)
- نهاية الأرب فى فنون الأدب
الأجزاء الأخيرة التاريخية (القاهرة ،٩١ - ١٩٩٢م)

وليم الصورى
- أعمال الفرنجة فيما وراء البحار (الحروب الصليبية) ،ترجمة حسن حبشى "٤ أجزاء"
(القاهرة ،٩١ - ١٩٩٥م)

ياقوت الحموى(شهاب الدين أبو عبد الله ، ت ٦٢٦هـ)
- معجـم البلـدان ،٨ أجـــزاء فى ٥ مجلدات
(بيروت ، دار أحياء التراث ، ١٩٩٧م)

ثانياً :المراجع العربية :

إبراهيم على طرخان (دكتور)
- صلاح الدين وتحرير القدس (القاهرة ، ١٩٦٨م)

جوانفيل:
- القديس لويس ، حياته وحملاته الصليبية على مصر
ترجمة حسن حبشي (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م)

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
- العدوان الصليبى على مصر - هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور
(الإسكندرية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٦٩م)

رأفت عبد الحميد محمد (دكتور) :
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب
بحث فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسط (آداب عين شمس) " المجلد الثانى "
(القاهرة ، ١٩٨٣م) ص ١٣٠-١٣٦ .

- قضايا من تاريخ الحرب الصليبية
(القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط١ ، ١٩٩٨م)

سعيد عبد الفتاح عاشور(دكتور):
- الإمبراطور فردريك الثانى وعلاقته بالشرق العربى
بحث فى مجلة الجمعية التاريخية العدد ١١ (القاهرة ، ١٩٦٣م)

- الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب (٤١) (القاهرة ، ١٩٦٥م)
- الحركة الصليبية جزءان فى مجلدين (القاهرة ، مكتبة الأنجلو، ط ٥، ١٩٩٣م)

عبد المنعم ماجد (دكتور) :
- الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى (بيروت ، ١٩٦٢م)

عزيز سوريال عطية (دكتور):
- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب سيف
(القاهرة ، دار الثقافة ، ط ١، ١٩٩٠م)

علية عبد السميع الجنزورى (دكتور) :
- الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
(القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٩م)

فيشر(هـ .أ .ل):
- تاريخ أوربا العصور الوسطى"القسم الأول"ترجمة: محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني (القاهرة ، دار المعارف ، د. ت)

قاسم عبده قاسم (دكتور) :
- ماهية الحروب الصليبية (القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٣م)
- الحروب الصليبية "نصوص ووثائق " (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠٠م)
- من تاريخ الأيوبيين والمماليك (القاهرة ، دار عين ، ٢٠٠١م)

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :
- حملة لويس التاسع على مصر
(القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٦١م)

محمود سعيد عمران (دكتور) :
- الحملة الصليبية الخامسة ، حملة حنا دى برين على مصر (الإسكندرية ، ١٩٨٧م)
- صلاح الدين من الإسكندرية إلى حطين ، بحث فى المؤتمر الدولى عن حطين فى ذكرى مرور ٨٠٠عام . (بغداد ، ١٩٧٢م)

موريس كين :
- حضارة أوربا العصور الوسطى ، ترجمة د.قاسم عبده قاسم
(القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٦م)

نورمان كانتور:
التاريخ الوسيط جزءان فى مجلدين ، ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم
(القاهرة ، دار عين ، ١٩٩٧م)

هايد :
- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ،ترجمة أحمد رضا محمد "٣ أجزاء"
(القاهرة ٨٥- ١٩٩٤م)

وفاء محمد على (دكتور) :
- دراسات فى تاريخ الدولة الأيوبية (القاهرة ، دار الفكر العربى ، د. ت)

يوشع براور :
- عالم الصليبيين ، ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن
(القاهرة ، دار عين ، ط ١، ١٩٩٩م)

ثالثا :المراجع الأجنبية:

Adrian J. Boad :

- **Jerusalem in the time of the crusades , London ,2001 .**

Edger N. Jonson :

- **The Crusades of Frederick Barbarossa and henry VI (Setton, vol II, PP.87-122), Wisconsin, 1969.**

Jone H. Hussy :

- **Pyzantium and the crusades (1081-1204) Setton, vol II, PP.123-151, Wisconsin, 1969.**

Joinvill (J.) :

- **The life of saint louis IX (Translated by M.R.B Shaw) penguin 1975 .**

Lane poole (s.) :

- **A History of the Egypt in the Mjddle Ages , London, 1925.**

Mayer (H. E.):

- **The Crusades (Translated by John Gillinghan ,Oxford Univ 1972.**

Runciman (S.):

- **History of the Crusades Cambridge Univ 1966.**

الخيانة الحاكمية زمن الغزو التترى للعراق والشام

{ قراءة فى المصادر العربية }

نظرية الغزو التترى وعلاقتها بالخيانة الحاكمية:

بينما وقف جنكيز خان يرنو ببصره إلى ماوراء الهضبة التى يقطنها بنو جلدته من التتر (المغول) إذ به يستحضر فى خاطره كلمات تلقاها فى طفولته على يد معلمه الأول تقول :

" إن بلادنا مهما اتسعت فلن تبلغ جزءاً من مائة من أرض الخطا أما السبب الذى جعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن فهو كوننا قوم رحل نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا ، وقد أكسبتنا الظروف خبرة واسعة فنحن إذ تمكنا غزونا ، وغنمنا ، ، وإذا عجزنا توارينا واختفينا ، أما إذا بدأنا نشيد البلدان ونقيم المدن تغيرت عاداتنا وطباعنا القديمة التى توارثناها على أسلافنا الأمجاد ولن تقوم لنا بعدها قائمة ، ولا تنس يا بنى أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى لين الخلق وتحبذ الرقة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر غير المقاتل القوى " .

هكذا استحضر جنكيز خان "تيموجين" تعاليم معلمه الأول ليقيم عليها منهجه فى الحياة ودستور دولته فى أوقات السلم والحرب ، والذى يقوم على النشر والغدر وسفك الدماء من أجل البقاء ، وهذه التعاليم الصارمة ظلت عنواناً ثابتاً للغزوات التترية على مر العصور والأزمنة .

وعلى الرغم مما تحقق للفتى " تيموجين " بعد ذلك من مكانة رفيعة بين قومه الذين انتخبوه فى مؤتمر عام زعيما لهم ولقبوه بالسيد الأعظم أو " جنكيز خان " فإنه لم ينس لحظة واحدة تعاليم أستاذه الأول التى حفظها عن ظهر قلب وصارت مدداً له فى كل غاراته التوسعية وبموجب هذه الزعامة الكبرى شرع فى بسط نفوذه على سائر القبائل التترية الأخرى مثل قبائل القلموق والقرغيز ، والقفجاق وغيرها من القبائل التى شغلت فى بداية الأمر مساحة جغرافية

من الأرض فى المناطق المتاخمة لشمال الصين فضلا عن مناطق سيبيريا والتركستان وبلاد القرغيز ، ثم اتسع المدلول الجغرافى لبلاد التتار ليشمل إقليم منغوليا والذى ينسب إليه " المغول " أو المنغوليون .

ولكن طموحات " جنكيز خان " لم تقف عند حدود الزعامة لعدد من القبائل البدائية فى هذه المساحة الجغرافية ، بل امتدت هذه الأطماع إلى أراضى الإمبراطوريات الكبرى فى " الصين " و" الخطا " غرباً حتى وصل بإطماعه إلى حدود الدولة الإسلامية ليقيم إمبراطورية امتدت من شبه جزيرة كوريا إلى بولندا فى أوروبا الشرقية .

ولكن سيادة هذا العالم لن تحقق بالنسبة لجنكيز خان إلا بغزو المشرق الإسلامى والسيطرة على ثرواته وموارده ليصبح جديرا بلقب " الحاكم الأعظم " أو " ملك ملوك العالم " ، ولم لا ؟ أليس تحت قيادته أفضل المقاتلين الذين تم تدريبهم على كل وسائل القتل والتخريب والتدمير فى إطار تعاليم "اليساق" التى تنص على أنه " لن يسود البشر غير المقاتل القوى " ـ وأنه لابد من القضاء على بقية الأجناس بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة !

وقد بدأت أولى المواجهات بين التتار تحت حكم جنكيز خان وحكام العالم الإسلامى سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م عندما أغاروا على أراضى الدولة الخوارزمية تحت حكم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ـ وكان سبب ذلك هو النزاع على الحدود بين التتار والمسلمين ، والذى أوجد حالة من التوجس بين الدولتين أسفرت فى النهاية عن إغارة التتار على بلاد المسلمين والزحف صوب سمرقند كبرى مدن ما وراء النهر فى المنطقة الأسيوية المتاخمة للعراق ، وفى هذا يقول المقريزى :" وفيها (٦١٦هـ) ابتدأ ظهور التتار واستولوا على كثير من بلاد الإسلام ، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه

تكشن ، ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم " وفى السنة التالية " استولى التتر على سمرقند وهزموا السلطان علاء الدين وملكوا الرى ، وهمزان وقزوين ، وحاربوا الكرج ، وملكوا فرغانة والترمد وخوارزم وخراسان ومرو ونيسابور وطوس وهراة وغزنة " .

ويروى " ابن الأثير " الذى عاصر هذه الأحداث تفاصيل هذا الزحف التترى على بلاد العجم من المسلمين مبتدأ كلامه بقوله : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليها رجلا وأوخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها " ويستطرد المورخ قائلا :

" فإن قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغروبلاساغون ثم منها إلى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرها فيملكونها ويفعلون بأهلها مانذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزنها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل ، وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم بلاد أذربيجان وأرانيه ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ...، ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم " .

وإذا كان المورخ ابن الأثير قد اهتزت مشاعره ، وزلزلت الأرض من تحت قدميه حول مافعله هؤلاء التتار " الملاعين " فإن القارئ المنصف لأحداث تلك الفترة منذ ظهور التتار على مسرح العمليات القتالية مع المسلمين فى بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى وحتى كانت نهايتهم المفجعة فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م - يرى أن " الملاعين "من أرباب السلطة والثروة من حكام المسلمين الذين خانوا الدين والوطن ، وباعوا أنفسهم وشعوبهم

مقابل " أن يثبتوا على ماهم فيه " من مظاهر الجاه والنعيم ، وهم الأجدر بأن تفرد لهم مساحات واسعة فى المصادر المعاصرة ليكونوا عظة وعبرة للذين يلحقون بهم من الحكام على مر العصور بعد أن قلت حرمتهم بين شعوبهم . لماذا ؟

لأن من يقرأ فى هذه المصادر - عامة - وفى تاريخ أحداث الغزو التترى لبلاد المشرق العربى / الإسلامى - خاصة - يلاحظ أن العامل الرئيس فى هذا الزحف العنيف للتتار هو الخيانة العظمى التى ارتكبها عدد غير قليل من الحكام وأرباب الدولة فى العراق والشام ، وما كان جنكيز خان (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة فى اتجاه الأراضى العربية الإسلامية إلا بدعوة شخصية من أحد هؤلاء الخونة أيا كانت مسمياتهم الحاكمية (خليفة ، سلطان ، ملك وزير ، أمير ، والى ،... الخ) وهو العامل الذى ارتكزت عليه نظرية الغزو التترى .

والظاهرة الواضحة فى المصادر التاريخية العربية ، بل والأدبية أيضا هى أن التتار فى جميع غزواتهم على العراق والشام كانوا يعتمدون على شرذمة من الخونة تبدأ بالحاكم وتنتهى بأحد التجار أو الغلمان الذين يمارسون هذا النوع من الخيانة بأوامر هؤلاء الحكام .

ولكن يبدو أن المصادر التاريخية المعاصرة كانت شحيحة إلى حد كبير فى عرض صور هؤلاء الخونة فى الوقت الذى كانت فيه هذه المصادر سخية إلى حد الإسراف فى وصف الجرائم الفظيعة التى ارتكبها التتار فى حق شعوب العالم الإسلامى تاركة الجانب المسكوت عنه - والأهم - فى رأيى - لقدرة القارئ على التحليل والاستنباط ، وقراءة ما بين السطور ، وهذا ما نحاول البحث فيه من خلال الصفحات التالية .

جـذور الخيانـــة :

كانت بداية مسلسل الخيانة الحاكمية فى العالم العربى زمن الغزو التترى للمشرق الإسلامى فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م عندما توترت العلاقات بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه(ت٦٢٨هـ) والخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) مما دفع الخليفة العربى إلى طلب النجدة من التتار ولم يكن يدرى وهو فى الأيام الأخيرة من عمره أنه يحفر قبر الخلافة العباسية بنفسه بموالاته لأعداء الإسلام والمسلمين .

يقول ابن الأثير :" فى أول هذه السنة وصل جلال الدين ابن خوارزم شاه محمد بن تكشن إلى بلاد خوزستان والعراق ، وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل إليها لما قصد التتر غزنة . ووصل إلى أصفهان وهى بيد أخيه غياث الدين فملكها وسار إلى منها إلى بلاد فارس . وسار إلى خوزستان فحاصر مدينة تتر فى المحرم وبها الأمير مظفر الدين مملوك الخليفة الناصر لدين الله فحاصره جلال الدين وضيق عليه وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا إلى باداريا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة فنهبوا هنالك . فسار إليهم شحنة البصرة وهو الأمير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة . فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكة جمال الدين قشتمر بالقرب منه . فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار إلى أن وصل إلى يعقوبا وهى قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسى والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد .

ويقول المقريزى : " وفيها (٦٢٢هـ) عاد السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى بلاده وقوى أمره على التتر واستولى على عراق العجم وسار إلى مردين وأخذها وسار إلى خوزسستان وشاقق جلال الدين الخليفة الناصر لدين الله وسار حتى وصل يعقوبا وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ فاستعد الخليفة للحصار ،...".

وتذكر لنا المصادر أن الخليفة الناصر هذا - " كان ردئ السيرة فى رعيته ظالماً ، عسوفاً ، خرب العراق فى أيامه وتفرق أهله فى البلاد ، فأخذ أملاكهم وأحوالهم . وكان يحب جمع المال ، ويباشر الأمور بنفسه ويركب بين الناس ويجتمع بهم مع سفكه للدماء وفعله للأشياء المضادة فيغتصب الأموال ويتصدق وشغف برمى الطير بالبندق ، ولبس سراويل الفتوة وحمل أهل الأمصار على ذلك وفى خلافته ضرب التتر بلاد الشرق ، حتى وصلوا إلى همذان وكان هو السبب فى ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد " .

وكان الخليفة الناصر ومن بعده ابنه الظاهر بأمر الله (ت٦٢٣هـ) كانا أشبه بمن استجار من الرمضاء بالنار (التتار) ، فكان سقوط مملكة خوارزم شاه على أيدى التتار ومقتل جلال الدين خوارزم شاه فى ١٥ شوال سنة ٦٢٨هـ نذير شؤم للخلفاء العباسيين حتى أنهم استغاثوا بالحكام الأيوبيين فى الشام ومصر من غارات التتار فضلاً عن غارات القبائل العربية المتاخمة لحدود الدولة العباسية .

" وفيها (سنة ٦٢٨هـ) قدم رسول الخليفة المستنصر بالله (ت٦٤٠هـ) بالخلع والتقليد للملك الكامل ، ....." .

" وفيها (سنة ٦٢٩هـ) تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط وسائر ما كان بيد الخوارزمى (جلال الدين) فاهتم الخليفة المستنصر بالله غاية الاهتمام وسير عدة رسل يستنجد الأشراف من مصر ، ..." .

ويبدو أن الظروف السياسية والعسكرية فى الشام ومصر لم تكن فى صالح الخلفاء العباسيين الذين صاروا كخيال الظل للخلافة الإسلامية فى الوقت الذى كانت فيه دولة سلاجقة الروم تعانى حالة من الوهن والخوار فى مواجهة الأخطار الخارجية ، بينما صار الحكام الأيوبيون كالأخوة الأعداء الذين اتفقوا على شئ واحد فيما بينهم ألا وهو الصراع على حكم مصر كل هذا والتتار يطوون الأرض طيا نحو العراق حيث مقر الخلافة فى بغداد .

وبعد وفاة جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م تخلى التتار بشكل مؤقت عن مسلسل الغزوات فى الجزء الغربى من القارة الأسيوية ، وانشغلوا بإصلاحاتهم السياسية فى الداخل خاصة أن زعيمهم الراحل - جنكيز - ترك فراغاً كبيراً يصعب ملؤه إلا بما أوتى حظاً من قدراته السياسية والعسكرية والنفسية ، فضلاً عن أن الفكر العسكرى التترى كان يقوم على نظام " الوثبات " السريعة والخاطفة لتحقيق أهداف محددة يعقبها فترة من الراحة والاستعداد ثم التخطيط لعملية عسكرية جديدة لا يتم تنفيذها إلا بعد جمع المعلومات الكافية عن البلاد المراد غزوها ، وبث الرعب فى نفوس أهالى تلك البلاد (الحرب النفسية) كى تحقق النتائج المرجوة بأعلى معدلات النجاح .

وفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م بدأ الزحف التترى من جديد صوب بلاد الدولة الخوارزمية الخاضعة آنذاك لحكم جلال الدين منكبر الذى عرف فى كتابات المؤرخين " بقبح سيرته وسوء تدبيره " ولم يجد جلال الدين هذا وسيلة للدفاع سوى الفرار والاستغاثة بأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسى ليكون معهم حلفاً ضد جحافل التتار التى كان هدفها فى تلك المرة بلاد الشرق العربى ولكن " سبق السيف العزل " ـ كما يقولون - وباغت التتار جلال الدين

قبل أن يصل إلى مبتغاه فى ديار بكر مما دفعه إلى الهرب إلى بلاد الأكراد ـ شمال العراق ـ حيث كانت نهايته المأساوية على يد أحد الأكراد .

وبعد مقتل جلال الدين واصل التتار زحفهم على المدن العراقية وقتلوا ما يزيد عن خمسة عشر ألف نسمة ، وبلغت ممارساتهم الوحشية بالعراق أبشع صورها حتى أن أحد المؤرخين الذين عاصروا الغزو التترى لبلاد الشرق الإسلامى يصف لنا هول ما حدث بإحدى بقاع الموصل بقوله :

" اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بى ، وكنت أراهم من نافذة فى البيت فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول (لا بالله) فيقتلونه ز فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول (لا بالله) " !

ويقول ابن الأثير ـ مؤرخ معاصر ـ :

" إنه بلغه عن مظاهر الرعب والذعر فى روايات يكاد سامعها يكذبها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم (من التتار) كان يدخل التترى القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد لا يجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغنى أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى وأحضر سيفاً فقتله به " .

ولقد قام التتار بحملات استطلاعية قبل غزو العاصمة ـ بغداد ـ لمعرفة حجم القوات العربية والاستعدادات العسكرية لجيش الخلافة العباسية ، وشملت هذه الحملات بعض المدن شمال العراق مثل " أربل " التى تعد البوابة الشمالية فى الطريق إلى بغداد وكذلك " سامراء " عاصمة العراق زمن المعتصم وكانت أحداث تلك الحملات فى الفترة من سنة ٦٣٢ـ ٦٣٥هـ/١٢٣٥ ـ ١٢٣٨م

حيث قتل فيها التتار أعدادا غفيرة من السكان ودمروا الكثير من القلاع والحصون دون الدخول فى معاك تصادمية مع القوات المسلحة العراقية .

وهنا لابد أن نشير إلى حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أن تلك الحملات العسكرية التترية كانت تتصاعد فى شدتها وبشاعتها على ضوء المعلومات الإستخبارية الواردة إلى " التتر " عن أحوال حكام الشرق العربى / الإسلامى ، وما هم فيه من ضعف واستخذاء ، واستعداد للتفريط فى حرمات البلاد ، وخيانة الدين والوطن .

وفى الفترة من سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م إلى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م وهى السنة التى انتخب فيها منكوخان ليكون الخان الأعظم بعد سلفه جغطاى جرت أحداث فى المناطق المتاخمة للعراق .

فقد تعرضت أرض الجزيرة وديار بكر وميافارقين وغيرها من المناطق فى شمال العراق إلى سلسلة من الغارات بغرض دراسة أحوال العراق بوجه عام ومعرفة نقاط القوة والضعف فى بناء الدولة العربية الإسلامية ، وبالفعل كشفت هذه الغارات عن حالة الوهن فى دولة الخلافة على مختلف الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية خاصة بعد سقوط الدولة الخوارزمية وانهيار حاجز الدفاع الأمامى للشرق العربى وتوقف حركة التجارة ، وانقطاع طرق المواصلات بسبب غارات التتار شبه المستمرة على القوافل التجارية .

وفى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م أرسل منكوخان حملة عسكرية بقيادة أخيه هولاكو الذى وصل إلى ديار بكر وميافارقين حيث ارتكب - هو وقواته - أبشع الجرائم ضد سكان العراق الآمنين راح ضحيتها عشرات الآلاف ما بين قتيل وجريح وأسير ومشرد الأمر الذى جعل المؤرخين المعاصرين يصورون لنا التتار فى صورة العدو الذى لايقهر متناسين بذلك المعادلة الصحيحة لقهر أى عدد مهما بلغت قوته وشراسته ، تلك المعادلة التى تقوم على ركنين رئيسيين هما : وحدة القوى

السياسية العربية " واعتصموا " ، والإعداد الجيد لكل وسائل القوة والردع " وأعدوا " ومن ثم فإن غياب طرفى المعادلة يجعل كتابات المعاصرين فى المصادر العربية أشبه بصفحات الوفيات والحوادث التى تثير الهلع والفزع فى نفوس الناس مثلما ورد فى أحداث هذه السنة (٦٥٠هـ) وما بعدها :

" وفيها وردت الأخبار بأن منكوخان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق فسار وأباد أهل بلاد الاسماعيلية قتلاً ونهباً وأسراً وسلباً ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين وجاءوا إلى رأس عين وسروج وقتلوا ما ينيف على آلاف وأسروا مثل ذلك وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد فأخذوا منها أموالاً عظيمة من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر وستمائة ألف دينار وقتلوا الشيوخ والعجائز وسرقوا النساء والصبيان معهم ، فقطع أهل الشرق الفرات وفروا خائفين " .

ولكن الأدهى من كل هذا وأوردته لنا المصادر العربية بشكل مختصر عن تلك الجرائم العظمى التى ارتكبها أهل الدولة من الوزراء والأعيان ضد الخليفة العباسى اللاهى " الذى لا يعبأ بشئ " والتى تمثلت فى خيانة الدين والوطن عندما باعوا أنفسهم إلى جواسيس التتار مقابل أن يكون لهم نصيب معلوم فى السلطة والثروة بعد دخول التتار بغداد وسقوط الخلافة الإسلامية بها .

الخيانـــة الحاكمية العربية فى العراق :

فى سنة ٦٥٤ هـ دخل هولاكو بقواته إلى أرض فارس وبها قوات طائفة الإسماعيلية حيث قاتلهم قتالاً عنيفاً تمكن بعده من القضاء عليهم والاستيلاء على قلعتهم الحصينة ، ليتجه بعد ذلك صوب العراق تمهيداً للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد .

" وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ببغداد وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من الأمراء بعدة مواعيد ،..." .

وهكذا تمكن هولاكو ـ قائد التتار ـ من تجنيد عدد من العملاء العرب فى بلاط الخليفة العباسى المستعصم بالله عبد الله ليجعل منهم طابوراً خامساً على عادة التتار فى اصطناع العملاء قبيل الهجوم المباشر على أى قطر من الأقطار ، ويبدو أن الوزير علاء الدين بن العلقمى كان مهيئاً ومعداً إعداداً جيداً لتنفيذ مهام الخيانة بحيث صار يصانع التتار فى سرية تامة ويرسل إليهم كافة المعلومات والأخبار التى مكنتهم من غزو بغداد وإسقاط الخلافة وقتل الخليفة العباسى .

ومن ناحية أخرى فإن الوزير الخائن " ابن العلقمى " لم يكتف فقط بمراسلة التتار وإمدادهم بالمعلومات والأخبار بل مارس نوعاً من الحرب النفسية ضد الخليفة العباسى وأهل العراق عامة من خلال نشر الشائعات حول قوة التتار وأسلحتهم وأساليب القتال التى يتفوقون بها على القوات العربية فضلاً عن مطالبته الدائمة للخليفة بتخيض أعداد الجنود فى جيش الخلافة والحد من الإنفاق العسكرى ومهادنة التتار إلى غير ذلك من أشكال ممارسة الخيانة " والخليفة فى لهواه لا يعبأ بشئ " .

وتروى لنا المصادر المعاصرة أن " هولاكو " دخل إلى بغداد قبل الغزو فى زى تاجر أعمى واجتمع بعدد من الوزراء وأكابر رجال الدولة ومن بينهم " مؤيد الدين " ، و"ابن الدبوس " وغيرهما من الذين خانوا الله ورسوله ولم يغادر بغداد إلا بعدما أتقن عمله معهم " .

وفى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ثارت فتنة كبرى بين أهل السنة والشيعة (الرافضة) بإيعاز من الوزير ابن العلقمى فأمر رئيس الشرطة بالهجوم على أهل الكرخ فى بغداد ومعظمهم من الرافضة وقتلوا عدداً كبيراً منهم مما أثار ضيق الوزير ابن العلقمى ــ وكان شيعياً ــ فأرسل إلى التتار يحثهم على سرعة غزو بغداد بعد أن صارت صيداً سهلاً .

وفى ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٧م تحرك هولاكو وقواته من مقره فى همدان - بعد قضائه على الطائفة الإسماعيلية - وزحف مباشرة صوب بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة العباسى وفى هذا يقول المقريزى :

" وفيها قوى هولاكو ابن تولى ابن جنكيز خان ، وقصد بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة فكثر الإرجاف فى بغداد ، وخرج الناس منها إلى الأقطار ، ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة وملك ظاهر بغداد وقتل من الناس عالماً كبيراً " .

وفى أول صفر ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أصدر هولاكو أوامره بالهجوم الشامل على أنحاء بغداد ليعيثوا فيها فساداً ، وفى اليوم الرابع من هذا الشهر استسلم الخليفة العباسى المستعصم وسلم عاصمة الخلافة للتتار دون قيد أو شرط ، وبعدها بعشرة أيام قُتل الخليفة ، وأعمل التتار سيوفهم فى أبدان المسلمين .

ولندع المقريزى يصف لنا بقلمه هذا الحدث :

" وفيها (سنة ٦٥٦هـ) ملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله عبد الله فى سادس صفر فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام

وانقرضت بمهلكه دولة بمنى العباس وصار الناس بدون خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة ،...، وقتل الناس ببغداد وتمزقوا فى الأقطار وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات ، واستمروا على ذلك أربعين يوماً وأمر هولاكو بعد القتلى فبلغت نحو الألفى ألف قتيل ، وتلاشت الأحوال بها ، وملك التتر أربل ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى طاعتهم " وكانت تلك هى المرة الأولى التى تقع فيها الخلافة أسيرة لغير المسلمين .

وبعد أن تمت فصول مؤامرة غزو بغداد بقتل الخليفة وولده وسط ذهول ملايين من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إذ كانت تلك المرة الأولى التى تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة فى أيدى هذه الجحافل البشرية الوثنية وبعد أن تغلب منطق الخيانة السائد بين الأنظمة السياسية الحاكمة فى العراق والشام على كل المشاعر الدينية الراسخة فى نفوس المسلمين تحولت أحداث الخيانة إلى فصل روائى فى أشهر كتب الأدب الشعبى إطلاقاً وهو " سيرة الظاهر بيبرس " التى تشير صراحة إلى خيانة الوزير ابن العلقمى للخليفة العباسى ودوره فى الغزو التترى للعراق ونهايته المأساوية جزاء هذه الخيانة .

يقول الراوى :

" كان من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، وبعد أن توفي إلى رحمة الله المعتصم بالله وتولى الخلافة بعد الواثق بالله ولده ، وتولى المقتدى بالله وهو شعبان ،...، وكان له وزير يقال له العلقمى فسار الملعون هلاون فى ستين ألف من الفرسان ، وكلهم يعبدون النيران دون الملك الديان راكبين خيول مثل الغيلان وساروا يقطعون البرارى والوهاد طالبين أرض بغداد " .

ولا عبرة عند الباحث فى الرواية الأدبية ـ بصحة الأحداث التاريخية ـ وإنما العبرة بالدلالات السياسية والعسكرية والعقيدية التى تعبر عن واقع التجربة

الحاكميـــة وكـــذلك الروايـــة الـــشعبية الوجدانيـــة للشخـــصيات الحاكميـــة والأحداث التاريخية .

فالرؤية الشعبية للخيانة الحاكمية لا تتجزأ من عصر إلى عصر بل هى رؤية ثابتة لأنها جريمة كبرى تؤثر سلباً فى حياة شعب بأكمله ، ومن ثم فإن الشعب العربى لا يستطيع أن يتسامح أو يغفر لمن لمن ارتكبوا مثل هذه الجريمة ، وهنا نقرأ فى السيرة الشعبية موقف الشعب من هذه الخيانة إذ يقول الراوى فى اللقاء الذى تم بين " هلاون " أو هولاكو وابن العلقمى الوزير " الخائن " :

" يا ويلك إذا كنت فعلت فى من هم فى دينك لأجل حمامة ، فتهلكنا نحن الآخرين من أجل ذبابة وأنت إن لم يكن فيك خير فى دينك وأهل ملتك ، فكيف يكون لك خير فينا " .

ومن الطبيعى أن تحاكم الشعوب الخونة من الحكام وجدانياً ولكنها تفوض أعدائها فى تحقيق ذلك فى الواقع التاريخى للأحداث مثلما حدث للوزير العباسى ابن العلقمى فى الرواية التى سردها القاص الشعبى عندما حاكم هولاكو عميله ووبخه على فعلته الشائنة وهى خيانة دينه ووطنه ، وأمر بقتله فى مدخل عاصمة الخلافة على مرأى ومسمع من عيون الناس .

" ...، ثم إن هلاون (هولاكو) صاح على رجاله وقال لهم خذوه وعلى باب المدينة (بغداد) اصلبوه .

والمهم هنا أن الخيال الشعبى فى هذه السيرة توافق مع الرواية التاريخية فى التمهيد بحادثة الخيانة إلى انتقال الأحداث إلى المسرح الرئيس فى الشام ومصر حيث كانت نهاية الغزو التترى فى عين جالوت سنة ٦٥٦هـ/١٢٦٠م على أيدى فرسان المماليك .

هكذا توافقت الرواية الأدبية الشعبية مع الرواية التاريخية الرسمية فى رسم صورة الخيانة لأحد كبار رجال الدولة وهو الوزير ابن العلقمى الذى نجح باقتدار فى توظيف كل مظاهر الضعف السياسى والعسكرى للدولة العباسية لمصلحة أولئك الغزاة القادمين من سهول الأستبس فى الشرق الأسيوى لينشروا كل مظاهر الفناء والدمار فى أنحاء العالم العربى فى زمن خان التتار الأعظم " منكو خان " الذى أرسل حملتين فى منتصف القرن السابع الهجرى /الثالث عشر الميلادى إحداهما إلى الصين والأخرى إلى العراق تحت قيادة هولاكو (هلاون) حيث تمكن فى إسقاط الخلافة العباسية فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م .

لقد كانت الصدمة الشديدة فى نفوس المسلمين إذ وجدوا أنفسهم لأول مرة بدون خليفة له رسالة سامية فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ووجدوا العاصمة - بغداد - التى كانت بالأمس القريب نموذجاً حضارياً فريداً قد تحولت إلى أطلال تنوح ضحاياها من القتلى والجرحى والمكلومين ، وتشهد على فساد وبشاعة جحافل التتار الذين دهسوا بسنابك خيولهم كل مظاهر الحضارة فى بغداد حتى أنهم دمروا خزائن الكتب القيمة وأضرموا النار فى المنشآت والمبانى الجميلة التى تحكى ذكريات الزمن الذى كان حتى خُيل للناس " أن الساعة آتية عن قريب".

"...، وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات"..واستولى العدو على ذخائر الخلافة وخزائنها وأموالها وجواهرها".

وتبدو الحقيقة المرة فى مسلسل الخيانة واضحة فى أعقاب سقوط بغداد وماصاحبه من أحداث دامية خلفت وراءها دعاية سوداء عن الجيش التترى الأسطورى الذى يطوى البلاد طياً ليفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، إذ تحولت ممارسة الخيانة عند الذين يحكمون البلاد العربية من طورها " السرى " على طورها " العلنى " بعد أن سقطت الأقنعة الحاكمية الزائفة .

الخيانـــة الحاكمية العربية فى الشام :

ويعد الملك الناصر يوسف حاكم دمشق نموذجاً للخيانـة المعلنـة زمن الغزو المغولى للعراق والشام إذ سارع إبان الزحف التترى على الشام إلى إرسال سفارة برئاسة ابنه (العزيز) إلى هولاكو ليقدم له فروض الطاعة والولاء ومؤكدا ذلك بما حمله من تحف وهدايا قيمة كى يعطيه الخان الأعظم الأمان لأبيه .

بل إن الناصر يوسف لم يشبع بهذا القدر من مطالب الخيانـة فى ظل الظروف المأساوية التى يمر بها الشرق العربى فزاد عليه وطلب على لسان ابنه أن يعاونه هولاكو فى القضاء على المماليك فى مصر .

ولنقرأ ما كتبه المقريزى فى هذه الواقعة الشائنة :

" فى (سنة ٦٥٦هـ) أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق أبنه الملك العزيز إلى هولاكو قدم إليه ما معه وسأل على لسان أبيه فى نجدة ليأخذ مصر من المماليك".

ولكن رد هولاكو جاء مخيباً لآمال الابن (العزيز) وأبيه (الناصر) إذ لم يعد قائد التتار فى حاجة إلى مساعدة تلك الأنظمة العميلة بعد أن كشفت عن ضعفها وخضوعها ، وعدم قدرتها على الحد الأدنى من المقاومة للزحف التترى وبالتالى فإنه لم يعد يكفيه ما تقدمه له تلك الأنظمة من الأموال والهدايا بعد أن صارت الأراضى العربية بكل ما فيها من موارد وخيرات تحت سيطرته .

وفى هذا يكتب المقريزى نص كتاب هولاكو إلى الناصر يوسف :

" الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها واستحضرنا خليفها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال ولم يعبأ للرجال " .

بل إن هولاكو طلب من الناصر يوسف الخضوع والإذعان دون قيد أو شرط وإلا سيكون جزاؤه وخيماً حتى وإن اتجه إلى مصر (كروان سراى) بأمواله وحريمه مثلما فعل تجار الشام وغيرهم نجاة بأنفسهم من بطش التتار وأطماعهم الخبيثة .

وإذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين تأمن شره وتنل خيره كما قال الله فى كتابه العزيز " أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى " ولا تعرف رسلنا عندك كما عرفت رسلنا من قبل، فأمساك بمعروف أو تسريح باحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراى فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها " .

أين النجاة ولا مناص لهارب   ولى البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت   فى قبضتى الأمراء والوزراء

ومن يقرأ سطور النصوص النثرية والشعرية الواردة فى الرسائل التترية إلى حكام العرب يلاحظ أن ثمة طابوراً خامساً من الأدباء والشعراء العرب الذين جندهم التتار لإشاعة الهلع والرعب فى نفوس هؤلاء الحكام وإضعاف الروح المعنوية فى صفوف الجيوش والشعوب العربية مما يسهل المهام القتالية للقوات التترية ، ويحقق لها أهدافها من الغزو بأقل الإمكانات والخسائر وهذا ما حدث بالفعل فى أعقاب وصول رسائل هولاكو المهينة إلى الناصر يوسف .

يقول المقريزى :

" فانزعج الملك الناصر وسير حريمه إلى الكرك ، وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات وسار كثير منهم إلى مصر " .

دور مصر فى مقاومة تداعيات الخيانة :

كانت أول خيانة حاكمية تصدت لها مصر فى بلاد الشام هى أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمش أرسل إلى هولاكو - بعد سقوط بغداد - يطلب منه تفويضاً بالأمان وكان السبب فى إقدام الناصر على هذه الخطوة الانهزامية هو خوفه على ملكه ورهبته من مواجهة جحافل التتار الذين سبقت سمعتهم سنابك خيولهم إلى أراضى الشام ، ورغم أن هذا الملك الرعديد كان يحمل فى خزائنه الخاصة وثيقة أمان فإنه لم يكن يثق فى التزام التتار بالعهود والمواثيق لأنهم جبلوا على الخديعة والغدر ونقض العهود .

" وفيها (سنة ٦٤٨هـ) وصل الملك الناصر من قبل القائد ملك التتار طمغا صورة أمان فصار يحملها فى حياصته " .

وبعدها بعشر سنوات أرسل هولاكو إلى الملك الناصر رسالة يدعوه فيها إلى المسارعة فى الدخول فى طاعته ضد المسلمين لكى " يأمن شره وينل خيره " .

وقد أثارت هذه الرسالة الهلع فى نفس الملك الناصر فتحول إلى مصر - التى كان يسعى إلى الاستيلاء عليها بمعاونة التتار - يستنجد بعسكرها ويلوذ بحماها . فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك (المغيث عمر) وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً وسار كثير منهم إلى جهة مصر . وكان الوقت شتاءً فمات خلائق بالطريق ونهب أكثرهم وبعث الناصر عندما بلغه توجه هولاكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر يستنجد بعسكرها " .

وكان بمصر آنذاك الأمير قطز الذى سعى إلى تدبير أمور الحكم ، فعزل الملك المنصور وتولى السلطنة بمصر وكتب إلى الملك الناصر بدمشق كتاباً يترقق فيه

ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر ومتى حل بها أقعده على الكرسى !

وربما حاول الملك الناصر يوسف أن يحافظ على ماء وجهه - بعد تلقيه رد هولاكو - فبعث برسالة حادة إلى القائد التترى ، وفى نفس الوقت أرسل إلى قطز فى مصر المحروسة يطلب منه العون،وكان ذلك فى شهر صفر سنة٦٥٨هـ/١٢٦٠م بعد أن إستولى هولاكو على حلب ومنها اتجه إلى دمشق مخلفا وراءه آلاف القتلى والجرحى وما يزيد على مائة ألف أسير من الصبيان والنساء الشوام .

ومن المؤكد أن الناصر يوسف قد أصيب بحالة من الاضطراب النفسى ولم يعد يميز بين انتماءاته السياسية فسعى إلى لقاء هولاكو ثم طلب العون من الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ومن قبل استغاث بالملك المظفر قطز الذى " صادر كل ما وصل إليه من غلمان الملك الناصر وكتابه وأخذ أموالهم " فضلاً عن الجواهر والأموال الكثيرة لزوجة الناصر ونساء " الأمراء القيمرية " لكى يستعين بها فى تجهيز الجيش المصرى لملاقاة الزحف التترى القادم من الشام .

ويبدو أن هذه الحالة من الاضطراب النفسى قد انتقلت عدواها من الملك الناصر يوسف إلى غيره من حكام الشام وانعكست هذه الحالة على أهالى تلك البلاد المحكومة لهؤلاء الخونة حتى وقعت فيهم " الجفلات " وكأن القيامة قامت بعد أن ظهر الفساد فى البر والبحر بأيدى هؤلاء الحكام .

" ...، ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو وسار الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده ، وجفل أهل حمص وحماة " .

ولأن الجزاء من صنف العمل فإن أحد غلمان الناصر يوسف واسمه حسين الكردى سعى للقبض عليه وعلى ولده " العزيز " وعلى أخيه " غازى " وغيرهم " وبعث بهم إلى هولاكو " ليلقوا جزاء خيانتهم فى حق الله والوطن .

وفى غضون تلك الأحداث كان هولاكو يزحف بقواته إلى دمشق التى حكمها الناصر يوسف عشر سنوات ثم رحل عنها بعد القبض عليه تاركاً وراء ظهره مجموعة من النظراء الخونة وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظى الذى وصفه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بالعمالة للتتار هو ومن معه من أقرانه الذين مهدوا الطريق أمام هولاكو وسلموه دمشق على طبق من ذهب ، بعد أن استسلم الناصر يوسف للخوف والاستخذاء .

" وعظم خوف الأمراء من هولاكو فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو ويشير بأن لا يقاتل وأن يدارى بالدخول فى طاعته فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى وضربه وسبه وقال : " أنتم سبب هلاك المسلمين " .

وبينما كانت أحداث الخيانة فى بلاد الشام تفوح برائحة كريهة أزكمت أنوف المعاصرين جاءت الأخبار بموت " منكوخان " خان التتار الأعظم ، وكان لابد من عودة هولاكو إلى بلاده للمشاركة فى اختيار الخان الأعظم الجديد ، تاركاً وراءه لقيادة الجيش القائد التترى كتبغا .

" وفيها (سنة ٦٥٨هـ) رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق (بلاد فارس) وجعل كتبغا بوين نائباً عنه بحلب ، وبيدرا نائباً بدمشق ، وأخذ معه من البحرية سبعة منهم سنقر الأشقر وسكز وبرامق وبكمش المسعودى " .

هكذا تمكن التتار من غزو العراق والشام دون أن يجدوا مقاومة تذكر من حكام البلاد التى دخلوها ، بل على العكس فإنهم وجدوا كافة مظاهر الاستسلام والخضوع والمهادنة من أمثال الناصر والذين لحقوا به من الخلفاء حتى الخليفة

المستعصم والوزير ابن العلقمى والملك الناصريوسف والأمير زين الدين الحافظى والملك الأشرف موسى ناهيك عن أهل الحكم من القضاة من أمثال محى الدين ابن الزكى وكمال الدين عمر التفليسى وغير هؤلاء من الخونة الذين اعتمد عليهم التتار فى اكتساح الأراضى العربية وحيث سارت بلدان العراق والشام مرتعاً خصباً لهؤلاء العملاء لإفراز سموم الفرقة والتشرذم بين الشعوب العربية كى لا تقوى على مواجهة التحديات والدفاع عن نفسها ضد الأخطار المحدقة بها من كل جانب .

بل إن السلطان سيف الدين قطز (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) دعا حكام الشام إلى نبذ الفرقة والخلاف وعدم التعامل مع التتار مهما كانت الظروف والملابسات لأن فى ذلك إضعاف لوحدة الصف العربى ، وأن العراق إذ كانت سقطت بسبب ضعف المسلمين وخيانة بعض الحكام فإن الأمر يستلزم وحدة الشام ومصر لرد العدوان وتحرير العراق مرة أخرى من نير التتار .

وبرغم الصدق الواضح فى دعوة قطز لحكام الشام ، فإن بعض هؤلاء الحكام لم يستجيبوا لهذه الدعوة وأصروا على ما هم فيه من خيانة ، وكان آخر هؤلاء الملك الأشرف صاحب حمص الذى كافأه التتار بعد عودته من عند هولاكو بتعيينه نائباً للسلطنة بدمشق وسائر الشام .

وفى هذا يقول أبو الفدا : " ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من فى الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين ، وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز بن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا ،...، وكان أيضا فى صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص " .

لقد كشف قطز منذ اللحظة الأولى فى قيادته للجيش العربى الإسلامى عن رؤيته السياسية والعسكرية الثاقبة إذ سعى إلى لم شمل حكام العرب

فى بلاد الشام وتوحيد الجهود الحربية فى جبهتى الشمال والجنوب من خلال مراسلاته التى أسفرت عن تجمع الفرق العسكرية الشامية وتقدمها نحو القاهرة لتكون تحت القيادة المصرية على أهبة الاستعداد لمهاجمة جيش التتار الذى صار قاب قوسين أو أدنى من الحدود المصرية .

وفى هذه الأثناء كان الأمير ركن الدين بيبرس فى الشام يتابع عن كثب أساليب التتار فى القتال وأساليب الخونة والعملاء فى مدهم بالأخبار والمعلومات من أمثال الملك الصالح إسماعيل الذى كان على اتصال سرى شبه مستمر مع التتار والأمير زين الدين الحافظى الذى كان أخطر عميل أحادى للتتار فى الشام ليس فقط لأنه كام مصدراً رئيسياً للمعلومات بل كان أيضاً مصدراً رئيسياً لنشر الدعاية السوداء فى صفوف القوات العسكرية الشامية والتى تدعوهم إلى رفع الرايات البيضاء للأعداء وتلبية كافة مطالبهم دون قيد أو شرط .

ويصور لنا أحد المؤرخين هذا المشهد الفريد فى الخيانة بقوله :

" وسار هولاكو إلى دمشق بعد أن أخذ حلب بستة عشر يوماً فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر المقرباتى المعروف بالدين الحافظى وأغلق أبواب دمشق وجمع ما بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو فتسلمها فخر الدين المردغانى " .

" فلما كانت ليلة الاثنين تاسع عشر صفر (٦٥٨هـ) وصل رسل هولاكو صحبة القاضى محى الدين بن الزكى وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب فخلع عليه وولاه قضاء الشام وسيره إلى دمشق ومعه الوالى . فسكن الناس وجمعوا من الغد بالجامع فلبس ابن الزكى خلعة هولاكو وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو " .

وثمة نص ورد فى العديد من المصادر العربية وهو رسالة موجهة من هولاكو (هلاوون) إلى الملك المظفر قطز " صاحب مصر وأعمالها وسائر أمراءها وجندها وكتابها وعمالها وباديها وحاضرها وأكابر وأصاغرها،..." (رواية ابن أيبك) .

أو هو رسالة من " ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم (إلى) الملك المظفر (قطز) الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا(سيوف التتار) إلى هذا الإقليم (مصر) ..." (رواية المقريزى) .

وهذا النص يوحى فى مضمونه بحالة الغرور والتيه والغطرسة التى بلغت أوجها فى نفوس التتار بعد سلسلة الانتصارات المذهلة والمفزعة لكل المعاصرين بحيث جاءت كلمات الرسالة بكل مافيها من غلظة وفجاجة تعبيراً حقيقياً عما أحدثه هؤلاء التتار من أعمال تخريب وتدمير وقتل وتشريد فى المدن العربية بالعراق والشام بمساعدة الخونة والعملاء الذين أمدوهم بأدق المعلومات عن القوات العربية الإسلامية وأسلحتها وقدراتها القتالية فضلاً عن المعلومات السياسية المتصلة بشئون الحكم والإدارة ناهيك عن دور هؤلاء الخونة فى إضعاف الروح المعنوية وإشاعة الرعب فى نفوس العسكريين المدنيينقبل نشوب المعارك حتى صار مجرد الاستماع لأخبار قدومهم على أى بلد عربى نذير شؤم لكل الشعوب العربية إذ أنهم (التتار) قوم لا ينهزمون وجيش لا يقهر .

ولكن مصر صاحبة الرسالة الأبدية فى الدفاع عن الأمة العربية والإسلامية ضربت المثل فى فترة وجيزة من عمر الزمن لم تزد عن عشر سنوات (١٢٥٠-١٢٦٠م) على أن مصير العرب جميعاً مرتبط بمصير مصر وأن الجيش المصرى الذى أحبط كل مخططات ومحاولات الصليبيين فى سيادة الشرق العربى وكانت آخر هذه المحاولات فى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م تحت قيادة الملك الصليبى

لويس التاسع الذى تصور بأنه بتحالفه مع جحافل التتار الغازية للعراق والشام يستطيع أن يغزو مصر ويعيد أمجاد الصليبيين فى حكم الشرق العربى الإسلامى .

وجاء رد قطز على رسالة هولاكو مخيباً لآمال الجيش التترى وآمال عملاءه من الملوك والأمراء والأعيان فى بلاد الشام الذين تصوروا وهم فى سكرة التيه أن النصر الحاسم آت وأن ثمار الخيانة قد حان قطافها وأن خريطة العالم العربى سوف تتعدل وفقا لأطماعهم الدنيوية والتى من أجلها باعوا الدين والوطن وهانت عليهم شعوبهم بعد أن هانت عليهم أنفسهم وصدق فيهم قول الشاعر :

ومن يهن يسهل الهوان عليه وما لجرح بميت إيلام

لقد كان رد قطز رسالة لكل الخونة والعملاء فى أنحاء العالم العربى بأن مصر فيها خير أجناد الأرض ، وأنها فى رباط إلى يوم الدين وأن صحوة الجهاد فيها لا تؤثر فيها وسائل التهديد والوعيد من جانب الأعداء ولا تفت فى عضدها أساليب التجسس والخيانة من جانب العملاء .

" وفيه أحضر قطز رسل التتار وكانوا أربعة : فوسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ووسط أخر بظاهر باب زويلة ووسط الثالث ظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل وجعله من جملة مماليكه . ونودى فى القاهرة ومصر وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ .

وصارت مصر مركزا لتجمع كافة المقاتلين من مصر والشام تحت قيادة قطز وكان الجميع فى انتظار تحديد ساعة الصفر وتحولت مصر إلى ميدان جهاد تتنافس فيه كل القوى الشعبية فى العمل والإنتاج والتدريب وبذل المال حتى صارت

الروح المعنوية للجنود فى عنان السماء ، بحيث لم يوجد على أرضها موطأ قدم لخائن أو عميل .

وقراءة متأنية لنصوص الرسائل الواردة من التتار وممهورة بتوقيع هولاكو ـ قائد التتار فى تلك الفترة ـ تودى بنا إلى الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى :

أن مضمون هذه الرسائل يكاد يكون دليلاً على خيانة فجة من بعض علماء الدين الذين صاغوا النصوص بأسلوب لغوى بديع لا يستطيع أن يأتى به كثير من ناطقى العربية أنفسهم ، بما تشتمل عليه هذه النصوص من مفردات لغوية متقنة ومحسنات بديعية رائعة فضلاً عما اشتملت عليه من آيات قرآنية وأقوال مأثورة وأبيات شعرية منظومة مما يؤكد وجود فئة من أرباب القلم (أهل العمائم) فى الطابور الخامس سخرت علمها فى خيانة الدين والوطن .

الملاحظة الثانية :

أن أرباب الخيانة من الحكام ، والأمراء ، والوزراء كشفوا من خلال اتصالاتهم السرية وسفاراتهم المشبوهة عن حالة العجز والاستخذاء التى عليها الأنظمة الحاكمة فى العراق وبلاد الشام مما شجع التتار على التعامل مع تلك الحكومات بنوع من الاستهانة والاستهزاء بتلك الأنظمة السياسية الهشة التى كانت عندهم أشبه بخيوط العنكبوت ومن ثم صيغت هذه الرسائل لكى يقرأها هؤلاء الحكام بأيدى مرتعشة ، وقلوب وجلة ، وعيون جاحظة ، وشفاه متدلية من أثر الخنوع .

الملاحظة الثالثة :

أن التتار كانوا على علم بما حققه فرسان المماليك فى معركة المنصورة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) من انتصار مذهل على الصليبيين ومن ثم استشعروا صعوبة المواجهة معهم ، فلجأوا إلى الحرب النفسية والتى من بينها هذه الرسالة

التى أرسلها هولاكو واشتملت على عبارات أكثر قسوة وفظاظة مما اشتملت على رسائلهم السابقة لحكام العراق وبلاد الشام مما يعكس حالة الجبن والذعر لدى التتار والتى حاولوا مداراتها بتلك الرسالة الفجة .

ولم تزل كتب الأدب الشعبي تعيش بين الناس فى أنحاء العالم تروى لهم قصة الخيانة الحاكمية التى كانت سبباً رئيسياً فيما هم فيه من ذل وهوان وإن جاءت الروايات فى إطار خيالى ساخر إلا أنها اتفقت فى مضمونها مع ما نقرأه بين السطور فى روايات المؤرخين وهو ما يمكن أن نطلق عليه " الجانب المسكوت عنه " وتتناوله أقلام المؤرخين بنوع من الاستحياء المشوب بالحذر ، بينما تتناوله الروايات الأدبية بنوع من الرمزية بحيث تترك العنان لخيال القارئ وتصوراته كى يفهم ما خلف الرمزيات من حقائق تاريخية .

فالخيانة التى مارسها الوزير العباسى ابن العلقمى أرجعت السيرة الشعبية سببها المباشر إلى نشوب خلاف بين ابن الخليفة وابن الوزير العلقمى بسبب لعب الحمام وتطييره فأمر الخليفة بذبح الحمام الذى كان فى حوزة ابن الوزير (العلقمى) مما أغضب الوزير " الخائن " فاتصل بالتتار يدعوهم إلى غزو بغداد وإسقاط الخلافة .

والمصادر التاريخية أشارت إلى انغماس خلفاء بنى العباس - زمن ظهور التتار فى الشرق الإسلامى - فى أمور اللهو والتسلية ومن بينها " رمى البندق والطيور " وتشير فى نفس الوقت إلى مداراتهم للتتار ومكاتباتهم وإطماعهم فى بلاد المسلمين مثلما كان الحال فى زمن الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس (ت٦٢٢هـ) وحتى زمن الخليفة المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ) آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد وكان " فى لهوه لا يعبأ بشئ " وهو الذى " أتلف عساكر بغداد لنهمه

فـى جمـع المـال فـدهى الإسـلام وأهلـه بلينـه وإسـناده الأمـر إلـى وزيـره ابـن العلقمـى فإنه قطع أرزاق الأجناد واستجر التتار حتى كان ما كان " .

وهكـذا يـرى " القـاص الـشعبى " الخليفـة العربـى " أميـر المـساخر " الذى يتصابى فى سلوكه وأفعاله ووسائل إشباع نزواته .

ويـراه " المـؤرخ الرسـمى " خليفـة بـلا صـلاحيات ولـيس لـه مـن الخلافـة " سوى الاسم " وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة .

النصر على التتار ونهاية الخونة :

وقـد سـبقت الإشـارة إلـى رحيـل هولاكـو إلـى قراقـوم بـسبب وفـاة منكوخـان وانتخـاب خاقـان جديـد بـدلاً منـه (قوبيلاى) ممـا اسـتدعى تعيـين قائـد عـسكرى اشـتهر بشجاعته وقسوتـه وهـو كتبغـا الـذى دخـل بقواتـه غـزة بفلسطين التـى شـاءت الأقـدار أن تكـون مـرة أخـرى ميـدان تحريـر الـشرق العربـى /الإسـلامى مـن التتـار الـوثنيين بعد أن كانت ميدان التحرير من نير الفرنجة الصليبيين فى زمن صلاح الدين الأيوبى (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) .

وكـان قطـز حريصاً فـى مواجهتـه مـع التتـار فـى عين جالوت (المنطقـة الواقعـة بـين نـابلس وبيـسان) علـى تحييـد القـوات الـصليبية فـى عكـا كـى لا تكـون شـوكة فـى ظهـره أثنـاء القتـال فـضلاً عـن أن هـذا الحيـاد سـيؤمن لـه خطـوط التمـوين والمواصلات .

ولسنا هنـا بصدد الحديث عـن تفاصيل معركـة عـين جالوت وهزيمـة التتـار فـى يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م والـذى أسـهبت المـصادر المعاصـرة فى الحديث عنها باعتبارها معركة حياة أو موت بالنسبة لكل المسلمين والعرب ولكن الحديث هنا يتحدد فى إطـار نتـائج هذه المعركـة علـى الخونـة والعمـلاء الـذين بـاعوا

الدين والوطن لأعداء الإسلام والمسلمين وسائر البشر مقابل أن يظلوا على ماهم فيه من جاه وسلطان ورغد العيش .

فيذكر المقريزى ما نصه :

" وكان هولاكو (فى بلاد فارس) لما قدم عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتباً وأختص به وأجلسه على كرسى قريباً منه وشرب معه حتى كتب له فرساناً وقلده مملكتى الشام ومصر وأخلع عليه وأعطاه خيولاً كثيرة وأموالاً وسيره إلى جهة الشام فأمر هولاكو لما ورد عليه خبر الكسرة (هزيمة التتار) برده فأحضر وقتل بجبال سلماس (فى أذربيجان) فى ثامن عشر شوال وقتل معه أخوه الملك الظاهر والملك الصالح ابن شيركوه وعدد من أولاد الملوك " .

وعن نتائج الخيانة الحاكمية :

يقول أبو الفدا عند ذكره لهزيمة التتار وقتل كتبغا :

" وفى هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسون وستمائة ، كانت هزيمة التتر يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر المصرية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتار وسار من مصر بالعساكر المصرية وبصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على ، وكان مسيره من الديار المصرية فى أوائل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصليبية ابن الملك العزيز بن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا ، وتقارب

الجمعان فى الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذته سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا .

وكان أيضا فى صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ومضافاتها ، ...، وأما الملك السعيد صاحب الصليبية فإنه أمسك أسيراً وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه ،...، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام وفى يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وهو الذى أوقع الملك الناصر فى أيدى التتر " .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

* القرآن الكريم

أولاً :المصادر :

ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣١م)

ـ الكامل فى التاريخ " الجزء التاسع " (دار الفكر، بيروت ، د.ت)

ابن أيبك الدوادار (أبو بكر عبد الله ، غير معروف)

ـ كنز الدرر وجامع الغرر " الجزء الثامن بعنوان الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية " نشر هانسن روبرت ـ القاهرة

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

ـ الرحلة ، تحقيق طلال حرب (دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ /١٤٧٠م)

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٦جزءا فى ١٦ مجلداً جـ١ ـ جـ١٢ تحقيق القسم الأدبى بدار الكتب (القاهرة ،د.ت)

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ /١٤٠٦م)

ـ تاريخ ابن خلدون " العبر" الجزء الخامس ، (دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٧١م)

ابن دانيال (شمس الدين محمد ، ت ٧١٠هـ /١٣٠٩م)

ـ طيف الخيال ـ مخطوط مصور ميكروفيلم رقم ٢٦٥٥ أدب ـ دار الكتب القومية بالقاهرة .

ابن العديم الحلبى (كمال الدين عمر ، ت ٦٦٠هـ)

ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، "جزءان" ، تحقيق سامى الدهان (دمشق ، ١٩٦٨)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)

ـ مفرج الكروب فى أخبار ابن أيوب ، تحقيق حسنين ربيع الجزءان ٤ ،٥ (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ،٧٢ ـ ١٩٧٧م)

أبو شامة (أبو محمد عبد الرحمن ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

ـ كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين (النورية والصلاحية) ، تحقيق إبراهيم الزيبق

ـ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٧م

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

ـ المختصر فى أخبار البشر (الجزء الثالث) تحقيق محمد زينهم عزب ، يحى سيد حسين (دار المعارف ، القاهرة ، د. ت)

بيبرس الدوادار

ـ زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة الجزء ٩ ، تحقيق زبيدة محمد عطا (دار عين ، القاهرة ، د.ت)

ـ سيرة الظاهر بيبرس (طبعة عبد الحميد حنفى ، القاهرة ، د.ت) المجلد الأول ـ الجزء الأول

العينى (بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ،١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ/١٤٠٨م)
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءاً فى ١٤ مجلداً (دار الكتب ، القاهرة ،د.ت)
المعجم الوسيط " جزءان فى مجلد " (دار الكتب ، القاهرة ،د.ت)
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء فى ١٢قسماً (اعتمدنا على الجزء الأول ، تحقيق د.محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،١٩٣٤م)
ياقوت الحموى(شهاب الدين أبى عبد الله ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
- معجم البلدان ٥ أجزاء فى ٥ مجلدات (دار صادر ، بيروت ،د.ت)

ثانياً :المراجع العربية والأجنبية :

إبراهيم أحمد العدوى
- العرب والتتار (المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٣م) .
أحمد عطية عبد الله
- القاموس الإسلامى (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)
سعيد عبد الفتاح عاشور
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية (المكتبة الثقافية رقم ١١٨، القاهرة ، ١٩٦٤م) .
- الحركة الصليبية " الجزء الثانى " (مكتبة الأنجلو المصرية،جـ٢١ ، القاهرة ، ١٩٧٦م)
عادل هلال
- العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٦م)
علاء طه رزق
- السجون والعقوبات فى مصر - عصر سلاطين المماليك (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٢م)
فاسيلى بارتولد
- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم (الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م)
فؤاد الصياد
- المغول فى التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان (دار العلم ، القاهرة ، ١٩٦٠م)
قاسم عبده قاسم
- بين التاريخ والفلكلور (دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٣م)
- فى تاريخ الأيوبيين والمماليك (دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م)

Claude Cahen :

The Mongols and the near east , in Setton (ed.)
A History of the Crusades vol. II, Wisconson,1969
,pp.710-732 (Setton) .

Grenard,F :

Gengis – Khan, paris 1935.

Hamilton Gibb:

The Ayyubids ,insetton (ed) A History of the Crusades vol.
II, Wisconson,1969 ,pp.693-713 (Setton) .

Howorth Sir Henry :

History of the Mongols , vol. I, London,1880 .

Joseph . R. strayer :

The Crusades louis IX, , in Setton (ed.) A History of the
Crusades vol. II, Wisconson,1969 ,pp.487-518 .

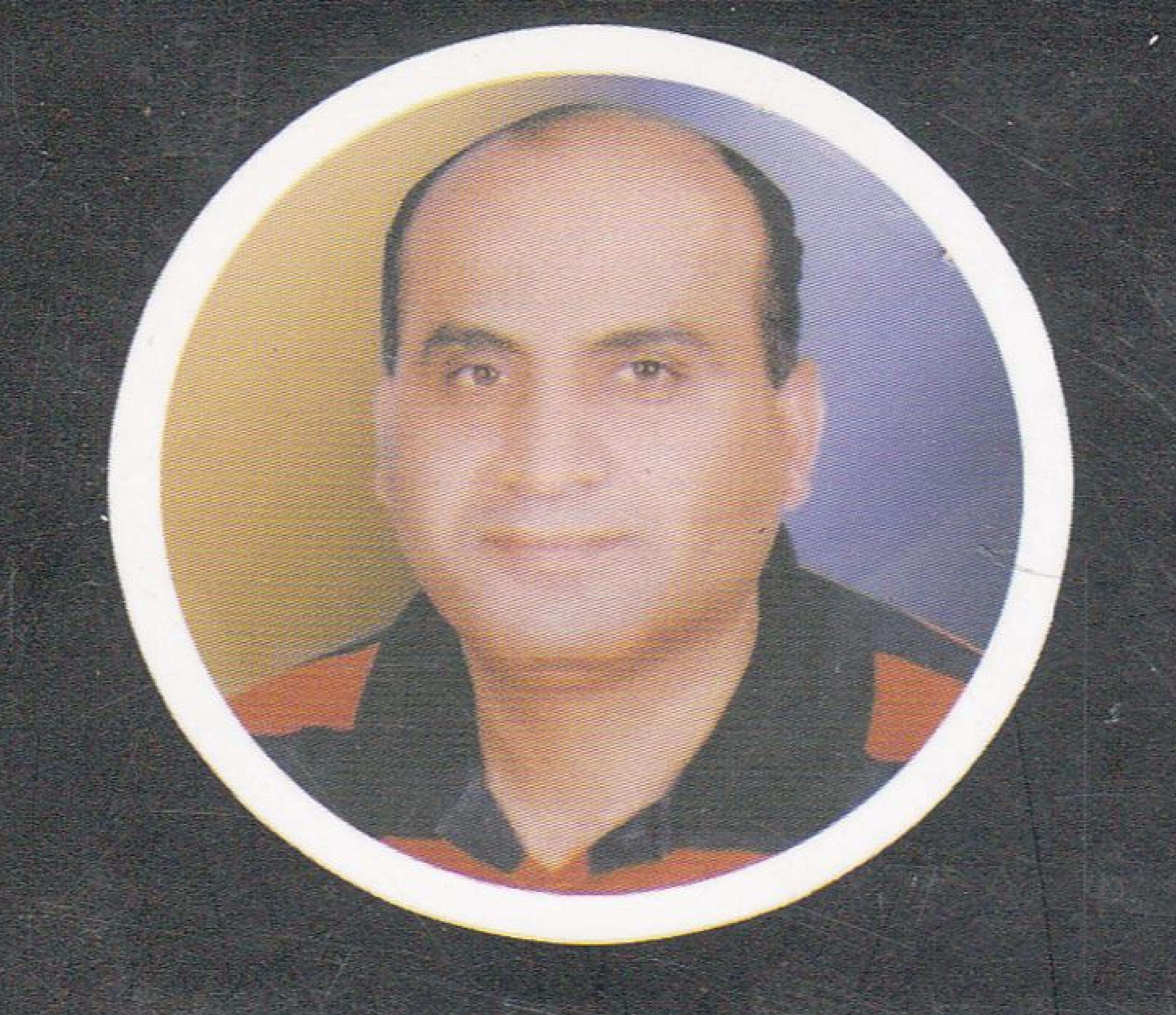
Runciman (S.):

A History of the Crusades Cambridge Univ, London,1957

Ziada (M) :

The Mamluk sultans, A History of the Crusades vol. II,
Wisconson,1969 ,pp.735-758. (Setton) .

الفهـرس



السيرة الذاتية للمؤلف

ليسانس الآداب - قسم التاريخ - جيد جدا " أول الدفعة ".

تمهيدى الماجستير - تاريخ العصور الوسطى - جيد جدا.

ماجستير الآداب - تاريخ العصور الوسطى - ممتاز.

دكتوراه الآداب - تاريخ العصور الوسطى - م. الشرف الأولى.

تحت عنوان : السجون والعقوبات فى مصر " عصر سلاطين المماليك ".

المؤلف تتلمذ على يد العالم والمؤرخ المصرى الدكتور / قاسم عبده قاسم على مدى ثلاثين عاما.

المؤلف يعتنق نظرية " التاريخ علم المستقبل " إذ أن دراسة التاريخ بوصفة " علم الماضى " أو علم الأحداث يفقد علم التاريخ جدواه و يقصره على الجانب المعرفى " كان يا ما كان ".

المؤلف فصل من التعليم ثلاث مرات بسبب حرية الرأى واعتناقه لنظريات تمس عصمة كهنة العلم وطلاب السلطة الذين أفسدوا العملية التعليمية فى مصر.

المؤلف ضابط عامل خدم بالقوات المسلحة المصرية الباسلة من ١٩٧٣ - ١٩٨٨ م.

المؤلف زميل الكلية الملكية بالمملكة المتحدة " لندن " سنة ٢٠٠٠ م.

المؤلف لم يتول أى منصب قيادى ، ولم يسع إلى الانتماء لأى حزب أو تنظيم لأنه يرى أن السلطان هو من ليس له سلطان.

المؤلف ما زال يبحث عن حقائق الأشياء فى عالم تسيطر عليه توافه الأشياء.



مكتبة نانسى - دمياط
المكتبة : ت ٢٤٠٨٥٥٣
المطبعة : ت ٢٤٠٨٥٥٤ المعرض : ت ٢٣٢٣٣٦٩